توجيهات ومواقف
في العدل والاهتمام بالمسؤولية

إعداد الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

ح عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
توجيهات ومواقف في العدل والاهتمام بالمسؤولية . / عبدالعزيز عبد الله الحميدي–ط٢..- مكة المكرمة ، ١٤٣٢هـ
١٩٨ ص ؛ .. سم
ردمك ٨-٨٠٧٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- العدالة في الاسلام ٢- الاسلام الديمقراطية أ. العنوان
ديوي ٢٥٧.٩ ١٤٣٢/٧٧٣٤

رقم الإيداع : ١٤٣٢/٧٧٣٤
ردمك: ٨-٨٠٧٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

توجيهات ومواقف

في العدل والاهتمام بالمسؤولية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبد الله ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فإن الحكم بالعدل من أهم أسباب استقرار الأمن والسعادة في المجتمعات البشرية ، فإنه بالعدل يحصل الحكام على قناعة الشعوب بهم ورضاهم عنهم وإن شذَّ عن ذلك مرضى القلوب من أصحاب المصالح الشخصية ، فإن الحاكم العادل يحصل بعَدله على سمعة كبيرة وشعبية عالية لدى القطاع الأكبر من الشعب، وبذلك فإن أصحاب المصالح الذاتية ينزوون ويبتعدون عن الأنظار خوفًا من مصادمة اتجاه القطاع الأكبر من الشعب .

وبالعدل في حياة الأسر تكون التربية السليمة والبعد عن

الشذوذ التربوي ، وبالعدل في قطاع المسؤوليات الإدارية تحصل الطمأنينة ويكون الإنجاز أكبر والإنتاج أعظم .

ولقد كان تاريخ سلفنا الصالح عامرًا بالأمثلة الرائعة على العدل وتحمل المسؤولية في جميع المجالات السياسية والقضائية والإدارية، وهذه الأخبار التي ستعرض في هذا الكتاب ما هي إلا نماذج مما حفل به تاريخ أمتنا من الروائع في مجالي العدل وتحمل المسؤولية .

من توجيهات رسول الله ﷺ

لقد رويت عن رسول الله ﷺ توجيهات كريمة نحو العدل والاهتمام بالمسؤولية.

ومن أهم ماجاء في ذلك من الأحاديث ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه،ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

ففي هذا الحديث بيان شمولية المسؤولية لكل أفراد المسلمين البالغين سن الرشد ، وهذا التفصيل الذي جاء في هذا الحديث فيه بلاغة في التعبير وبراعة في توزيع المسؤولية ، بحيث يشعر كل مسؤول

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٧١٣٨ ، كتاب الأحكام ، باب ١(١٣/ ١١١) صحيح مسلم ، رقم ١٨٢٩، كتاب الإمارة، باب ٥(ص ١٤٥٩) .

نُوِّه بذكره بمسؤوليته ، لأن توزيع المسؤولية إلى فئات معينة يُشعر أفراد كل فئة بمسؤوليتهم بخصوصهم ، ولو ذُكرت المسؤولية على سبيل العموم لم يكن هناك شعور بها لدى أفراد كل تلك الفئات ، لأن كل فئة تعتقد أن المسؤولية في غيرها إلا فيما اشتُهر فيه المسؤولية عن الرعية وهم الولاة .

وقد بدأ النبي ﷺ بذكر مسؤولية الأمراء ، وذلك يشمل الخليفة الذي يحكم المسلمين، كما أنه يشمل جميع الولاة الذين هم تابعون له أو مستقلون بحكم بعض البلاد ، فهم جميعًا مسؤولون عن رعاياهم ، وذلك بإقامة العدل فيهم ورعاية مصالحهم والحفاظ على أمنهم وحمايتهم من أعدائهم ، والنظر الحكيم لمستقبلهم وإقامة شريعة الله تعالى فيهم ، وغير ذلك مما فيه إعزاز الدين وسعادة الرعية ، فإذا فعلوا ذلك فازوا بما وعدهم الله سبحانه بمثل ماجاء في قول النبي ﷺ «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل» الحديث ،

أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ [1] .

وقولـه ﷺ « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما [2] .

وقوله « والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته» ، يبين مسؤولية الأب عن أسرته ، فهو مسؤول عن تربية أفراد أسرته على تعظيم الدين والاستقامة عليه ، والدعوةُ إلى ذلك فرض على صاحب الأسرة ، ولايكون لدعوته أثر ولافائدة حتى يستقيم على هذا الدين ، ولذلك فإنه يجب على الإنسان أن يحافظ على الدين أولا ،وأن يدعو أفراد أسرته إلى ذلك ،وأن يلزمهم بتطبيق الإسلام بالموعظة والحكمة، وهو مسؤول عن تعليم أبنائه وبناته،كماأنه مسؤول عن الإنفاق على أسرته في حدود استطاعته،إلى غير ذلك من الأحكام والآداب الأسرية .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ ، كتاب الزكاة (٣/ ٢٩٢) ، صحيح مسلم ، رقم ١٠٣١، كتاب الزكاة (ص٧١٥) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٨٢٧ (ص١٤٥٨) .

وقوله « والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ، بيان لمسؤولية المرأة في بيتها، فالمرأة تشارك زوجها في تربية الأولاد وتعليمهم والقيام بشؤونهم ، وتأخذ مسؤولية أكبر في رعاية وتربية الأطفال والعناية بهم .

وهكذا شمل هذا الحديث قطاعات من المجتمع في بيان تحمل المسؤولية ،من أعلى رجل في دولة الإسلام وهو الخليفة إلى أدنى رجل وهو العبد المملوك ،حيث حمَّله النبي ﷺ المسؤولية في مال سيده.

وإنَّ من أهم الأمور التي تقي المسلم من الخطأ أثناء تحمل المسؤولية أن يكون دائما مستشعرًا رقابة الله عز وجل ، فيعمل بما يرضيه وإن سخط عليه الناس ، وأن يجعل ابتغاء مرضاته واجتناب سخطه هو الحاكم على جميع تصرفاته .

فإذا وافق رضا الناس رضا الله تعالى فذلك خير وفضل من الله جل وعلا ، سواء كان هؤلاء الناس من المسؤولين أو من المراجعين ، وفي هذه الحال لايشعر الإنسان بضغط المسؤولية وتشعب الفكر ، ولكن يقل توافر ذلك إلا في المجتمعات الفاضلة .

أما إذا خالف رضا الناس رضا الله تعالى فإن المسؤول يعيش مرحلة من التفكير المتواصل الذي قد يصل في البداية إلى حد الإرهاق، ولكن حينما يتغلب جانب الإيمان بالله جل وعلا في قلبه فإن ذلك يهيمن على مشاعره وتفكيره ، وبذلك يحكم تصوره وسلوكه ، فلا يفكر إلا فيما يرضي الله تعالى ، ولايعمل إلا بما يرضيه ، وفي هذه الحال يتجرد القلب لتوحيد الله عز وجل ، وتضمحل شيئا فشيئًا دسائس الشرك المتمثل في تسرب القوى البشرية إلى قلب المؤمن .

فإذا تغلب اعتبار هذه القوى البشرية على القلب فإنها تزاحم وجود الإيمان بالله تعالى في هذا القلب، فتطغى على التفكير وتهيمن على المشاعر ، وبذلك تظهر تصرفات صاحب هذا القلب منسجمة مع مايرضي الناس ومناقضة لما يرضي الله عز وجل ، ويكون الإنسان بهذا قد دخل في أنواع من الشرك الأصغر .

وإنَّ الذي يكون قلبه موزعا بين محاولة العمل على رضوان الله تعالى واجتناب سخطه وبين محاولة كسب رضا الناس فيما يجلب عليه من سخط الله سبحانه يعيش في قلق وإرهاق نفسي ، ولايستريح حتى

يغلب عليه اعتبار أحد الجانبين ، فإن غلب عليه الإيمان بالله تعالى فأصبح يطلب رضوانه وإن سخط عليه الناس فإن الله سبحانه يغمره بالطمأنينه والسكينة،ويشعر براحة نفسية عالية ، ويعطف عليه قلوب الناس ، كما جاء في قول رسول الله ﷺ : «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ،ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس »[1].

والناس الذين يُعتدُّ برضاهم وسخطهم هم أصحاب العقول السليمة الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح .

ومع هذا فإن الذي يثبت دائمًا على الصراط المستقيم يكون مقدرا ومهيبا حتى عند المنحرفين الذين لم يلتزموا بهذا الطريق .

وإن غلب عليه النظر إلى رضا الناس حتى لو خالف رضا الله جل وعلا فإنه يستريح قليلا من التفكير والقلق ، ولكنه يتجرع الألم بعد ذلك إن كان له قلب فيه بقية من إيمان مع ماينتظره من الحساب

---

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٤١٤ ، كتاب الزهد ، باب ٦٤ (٤/ ٦٠٩) .

يوم القيامة .

وهذه أمثلة أخرى من عدله ﷺ ، فمن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم ، فاستعدى عليه، فقال: يامحمد إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها ، قال: أعطه حقه ، قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه ، قال : والذي نفسي بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئا فأرجع فأقضيه ، قال: أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثا لم يراجع ، فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متَّزر ببُردَة ، فنـزع العمامة عن رأسه فاتَّزر بها ونزع البردة فقال : اشتر مني هذه البردة ، فباعها منه بأربعة دراهم ، فمرَّتْ عجوز فقالت : مالك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها فقالت: هادونك هذا البُرْد لبُردٍ عليها طرحته عليه [1] .

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٣/ ١٨١ .

فهذا حكم ظاهر من رسول الله ﷺ بالعدل مع أن المدعي يهودي وقد ذكر المدعى عليه وهو عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه الإعسار وطلب الإمهال حتى يرجعوا من خيبر ، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أمره بأداء الحق ولم يأمر اليهودي بإمهاله .

فأين مفكرو الأمم الذين يدَّعون بأنهم هم أهل العدالة ليروا أحكام النبي ﷺ الكثيرة العادلة ، وذلك ليعلموا أنهم إنما اقتبسوا ماعندهم من العدالة من أمة الإسلام التي تأست برسولها ﷺ ؟!

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه ، فاشتد عليه حتى قال له : أحرِّج عليك إلاَّ قضيتني ، فانتهره أصحابه وقالوا : ويحك تدري من تكلم ؟ قال: إني أطلب حقي ، فقال النبي ﷺ: «هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ » ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: « إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأيتنا تمرنا فنقضيك» فقالت : نعم بأبي أنت يارسول الله ، قال : فأقرضَتْه ، فقضى الأعرابي وأطعمه ، فقال: أوفيتَ أوفى الله لك، فقال: « أولئك خيار الناس إنه

لا قُدِّسَتْ أمة لايأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع» وقال البوصيري : إسناده صحيح [1].

فهذا حديث عظيم يبين اتصاف النبي ﷺ بأعلى درجات التواضع والعدالة ، فعلى الرغم من سوء أدب ذلك الأعرابي فإن رسول الله ﷺ لم يغضب عليه ، بل أنكر على الصحابة رضي الله عنهم حينما انتهروا ذلك الأعرابي وأرشدهم إلى أن يكونوا مع صاحب الحق الذي يطلب حقه وإن أساء الأدب ، ولم يطلب من ذلك الأعرابي أن يمهله ، بل اقترض من تلك الصحابية ما أدى به ذلك الدين.

ولقد توَّج النبي ﷺ ذلك الدرس العملي البليغ بهذا التوجيه العالي «إنه لاقُدِّستْ أمة لايأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع» حيث أفاد بأنه من حق صاحب الحق أن يأخذ حقه من غير أن يُمنع ولا أن توضع في طريقه العوائق،وأن الأمة التي يحال فيها بين صاحب الحق والحصول

---

(١) سنن ابن ماجه ، رقم ٢٤٢٦ ، كتاب الصدقات (٢/ ٨١٠) وأخرج آخر الحديث الحافظ الطبراني من حديث معاوية رضي الله عنه ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجاله ثقات – مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٩ – .

على حقه بسهولة وراحة أمة لاتستحق التقديس والاحترام.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنها قالت :«كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بني ساعدة ، فأتاه يقتضيه، فأمر رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار أن يقضيه ، فقضاه تمرا دون تمره فأبى أن يقبله ، فقال: أترد على رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم ، ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ، فاكتحلَتْ عينا رسول الله ﷺ بدموعه ، ثم قال: صدق، ومن أحق بالعدل مني؟ لا قدَّس الله أمة لايأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولايتعتعه ، ثم قال : ياخولة عُدِّيه واقضيه ، فإنه ليس من غريم يخرج من عند غريمه راضيا إلا صلت عليه دواب الأرض ونون البحار ، وليس من عبد يلوي غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه في كل يوم وليلة إثما » .

ذكره الحافظ المنذري وقال : إسناده جيد [1].

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ٢٧٠ .

صلى الله عليك يارسول الله ، يا أرحم الناس وأعدلهم ، يامن تدمع عيناه يوم أن شاهد ذلك الموقف المؤثر من رجل يطلب الكمال في حقه ، وآخر يريد أن يتوصل بما لرسول الله ﷺ من حق عظيم وتقدير بالغ إلى أن يهضم ذلك الرجل حقه الكامل ، فأنكر ﷺ ذلك وأمر بأن يُقضَى حقه كاملا، وأتحف أمته بتوجيهها نحو الكمال الذي تحوز به القداسة ، وذلك بأن يُؤخذ لضعيفها الحق من قويها ، كما ذكَّر الغرماء بالسعي نحو إرضاء غرمائهم ليحوزوا على دعاء دواب الأرض وحيتان البحار،وحذر من مماطلة الغرماء لأصحاب الحقوق، وذلك ببيان أن المماطل يُكسب نفسه الإثم الذي يُكتب عليه كل يوم وليلة .

من مواقف الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

موقفه في تقرير العدل وإزالة الظلم :

أخرج محمد بن إسحاق من حديث أنس بن مالك ﷺ في بيان بيعة أبي بكر الصديق ﷺ بالخلافة قال: فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ،فإن أحسنت فأعينوني ،وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله [1] .

وذكره الحافظ ابن كثير وقال : وهذا إسناد صحيح [2] .

فقد استفتح أبو بكر الصديق ﷺ خلافته بهذه الخطبة البليغة الجامعة التي قرر فيها موازين العدالة والرحمة بين الحاكم والمحكوم ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٥ – ٣٠٦ .

وقد ضمَّن هذه الخطبة عزمه على قطع أهم أسباب الظلم وهو تسلط الكبار والأقوياء على الصغار الضعفاء ، فالقوي الذي اعتز بماله وشرفه ومنصبه فجعل من ذلك وسيلة لظلم الضعفاء المغمورين وأخْذ حقوقهم يصبح في نظر أبي بكر وسياسته ضعيفا مسلوب القوة مجردا من أسباب التعاظم حتى يؤدي حقوق الناس ، وإن النظر إلى الكبراء المتغطرسين بنظرة الاستخفاف والإذلال تجعلهم يتجردون من سلاحهم الذي استعزوا به على الضعفاء ، وإذا بطل مفعول هذا السلاح فإنهم سرعان مايخضعون للعدل ويؤدون ماجحدوه من حقوق الآخرين .

أما الضعيف الفقير المستذل فإنه في نظر أبي بكر وسياسته قوي حتى يأخذ حقه له ، وإن الذي يحول بين الضعيف ومحاولة المطالبة بحقه هو مايتوالى عليه من معاملات الإهانة والإذلال من الكبراء ، فهو مايزال يتلقى الإهانات النفسية منهم حتى يصل إلى مرحلة اليأس من حصوله على حقه ، فإذا رأى من الحاكم إعزازا له واعترافا بحقه في المطالبة وتسهيلا لسبل الوصول إلى أخذ حقه فإنه ينهض

للمطالبة بحقه قويا غير مبال بغطرسة الكبراء وتعاظمهم .

فبهذا كانت هذه الخطبة تحقيقا للتوازن بين سلوكيات أفراد المسلمين وتقريبا بين طبقات المجتمع ، وإزالة للفجوة التي تفصل بين الأقوياء والضعفاء وضمانا لوصول الحقوق إلى أصحابها.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنهم قام يوم جمعة فقال : إذا كان بالغداة فاحضروا صدقات الإبل نقسم، ولايدخل علينا أحد إلا بإذن ، فقالت امرأة لزوجها : خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملا، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما ،فالتفت أبو بكر فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه الخطام فضربه ، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الخطام وقال : استقد ، فقال له عمر : والله لايستقيد ، لاتجعلها سنة ، قال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة ؟ فقال عمر : أرْضِهْ ، فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة وخمسة

دنانير فأرضاه بها [1] .

فهذا مثل من عدل أبي بكر الصديق ﷺ ، حيث طلب من ذلك الرجل أن يضربه بالخطام بدلا من ضربه إياه ، مع أن ذلك الرجل قد ارتكب مخالفةً سبق التحذير منها فاستحق العقوبة على ذلك ، ومع هذا فإن أبا بكر خشي من القصاص يوم القيامة ، حيث سيكون بالحسنات بدلا من الضرب ، فأراد أن يمكِّن ذلك الرجل من ضربه ، فكان في رأي عمر مخرج من ذلك ، حيث تم إرضاء ذلك الرجل فحصل له أكثر مما كان يؤمل من تلك الصدقات .

وهذا الذي جرى من أبي بكر نوع نادر من الإحساس مبعثه تضخم النظر إلى الآخرة إلى جانب ضآلة النظر إلى الدنيا ، وهذا الميزان الدقيق هو الذي يبعث على العدل والتواضع والرحمة وسائر مكارم الأخلاق .

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٣/ ١٢٧ .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

اهتمامه بالمسؤولية :

أخرج الحافظ الطبراني من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: إن أمير المؤمنين بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وأنظف لكم طرقكم .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح [1].

ففي هذا الخبر بيان لبعض مهام الولاة وواجباتهم ، فمن مهام الوالي القيام بتعليم الناس أمور دينهم حتى يعبدوا الله على بصيرة ، وحتى يفهموا أحكام الإسلام في المعاملة بين المسلمين وفيما بينهم وبين أهل الذمة والأعداء ، وبهذا الفهم يستطيع المسلمون أن يستقيموا في حياتهم وأن يحققوا السعادة لمجتمعهم ، وليس معنى هذا أن الوالي يباشر بنفسه تعليم جميع المسلمين في ولايته، وإنما يكلف أهل العلم بالقيام بذلك ويكون مشرفا عليهم وموجها لهم ،وهذا

---

(١) مجمع الزوائد ٥/ ٢١٣ .

يعني أن يكون الوالي من أهل الفقه بالكتاب والسنة ، وهذا هو الأمر الموافق للحكمة ، لأن مهمة الوالي الكبرى هي الإشراف على تطبيق الإسلام في الأرض ، فإذا لم يكن فقيها في الدين فكيف يشرف على تطبيقه؟!

ومن منطلق هذا التوجيه باهتمام الولاة بتعليم أمور الدين يتبين لنا أنه في حال تطبيق ذلك لايبقى من المسلمين من يجهل أمور دينه لأن الاهتمام بذلك موجه من أعلى سلطة في البلاد ، والناس – عادة – يهتمون بما يهتم به ولاتهم .

وحينما تولى على المسلمين ولاة – على مر العصور – لايحسنون ذلك أوْ لايطبقونه تأخر المسلمون في المجال العلمي ، وبذلك تأخروا في المجال الحضاري ، لأن تقدم المسلمين في العمران والحضارة مرتبط بمدى فهمهم للإسلام وتطبيقه .

وفي قوله « وأنظف طرقكم» لفتة إلى مسؤولية الوالي عن الحياة المدنية لرعيته ، فهو مسؤول عن تنظيم البلاد وتحسينها ورعاية مصالح الناس فيها ، وهذا جزء من تعليم الدين لأن الإسلام يأمر

بالنظافة ورعاية مصالح الناس ومنع الضرر عنهم .

ومن أخبار اهتمام أمير المؤمنين عمر ﷺ بالمسؤولية ما أخرجه الحافظ أبو نعيم من خبر الإمام الأوزاعي : أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها : مابال هذا الرجل يأتيك ؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا كذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى [1].

سبحان الله ! هل كان عمر وهو خليفة المسلمين يشعر بأنه مسؤول عن تلك المرأة المقعدة التي لاعائل لها ؟ نعم كان يشعر بذلك وأن عليه أن يقوم بشأنها أو يرتب لها من يفعل ذلك، ولعله فعل ذلك حتى وجد من يقوم بهذا الأمر ، وإن حاكما على الأمة الإسلامية كلها يشعر بمسؤوليته عن امرأة مقعدة لهو أحرى بأن يشعر بأمور الأمة الكبيرة ، وهكذا أخرج الإسلام رجالا عظماء لاتشغلهم كبار الأمور

(١) حلية الأولياء ١/ ٤٨ .

عن صغارها،بل يأخذ كل أمر من أمور الأمة حظه من الاهتمام والتقدير.

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ البيهقي وابن عساكر من خبر الإمام طاوس بن كيسان رحمه الله: أن عمر ﷺ قال: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ماعلي ؟ قالوا : نعم ، قال : لا ، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟ [1].

وهذا من كمال العدل ، لأن المرحلة الأولى من العدل والنجاح في العمل أن يسند المسؤول أعماله إلى أهل الكفاية الذين يجمعون بين الأمانة والخبرة والقوة ، وأما المرحلة الثانية فهي أن يراقبهم في أعمالهم بحكمة وروية حتى يطمئن إلى أنهم قد قاموا بأعمالهم بإتقان وسداد ، وهذا هو ما أشار إليه أمير المؤمنين عمر في هذه الكلمات .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ البيهقي من خبر أبي عثمان النهدي قال: استعمل عمر بن الخطاب ﷺ رجلا من بني أسد على عمل فجاء

---

(١) كنز العمال ٣/ ١٦٥ .

يأخذ عهده ، قال: فأتى عمر ﷺ ببعض ولده فقبله ، قال: أتقبل هذا؟ ماقبلت ولدا قط ، فقال عمر : فأنت بالناس أقل رحمة ، هات عهدنا لا تعمل لي عملا أبدا [1].

فهذا استدلال جيد من أمير المؤمنين عمر ، فإن أقرب الناس إلى الإنسان أولاده ووالداه ، فإذا قلَّت رحمته بأولاده أو بوالديه فإن ذلك دليل على قسوة قلبه ، ومن كان كذلك فإنه لايصلح للولاية ، لأن أهم مقومات العدل الاتصاف بالرحمة .

اهتمامه بأهل الذمة :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من عدة طرق من خبر سويد بن غفلة قال: كنا مع عمر بن الخطاب -وهو أمير المؤمنين- بالشام فأتاه نبطي مضروب مشجوج يستعدي فغضب غضبا شديدًا فقال لصهيب : من صاحب هذا ؟ فانطلق صهيب فإذا عوف بن مالك الأشجعي ، فقال له: إن أمير المؤمنين قد غضب غضبا شديدًا

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤١ – ٤٢ .

فلو أتيت معاذ بن جبل فمشى معك إلى أمير المؤمنين فإني أخاف عليك بادرته ،فجاء معه معاذ ، فلما انصرف عمر من الصلاة قال: أين صهيب ؟ قال: أنا هذا يا أمير المؤمنين ، قال: أجئت بالرجل الذي ضربه ؟ قال: نعم ، فقام إليه معاذ بن جبل فقال له: يا أمير المؤمنين إنه عوف بن مالك فاسمع منه ولاتعجل عليه ، فقال له عمر : مالك ولهذا؟ قال [يعني عوف] : يا أمير المؤمنين رأيته يسوق امرأة مسلمة فنخس الحمار ليصرعها فلم تصرع، ثم دفعها فخرَّت عن الحمار فغشيها ففعلت ماترى ، قال: ائتني بالمرأة لتصدقك ، فأتى عوف المرأة فذكر الذي قاله عمر ، فقال أبوها وزوجها : ما أردت إلى صاحبتنا قد فضحتنا فقالت المرأة: والله لأذهبن معه إلى أمير المؤمنين ، فلما أجمعتْ على ذلك قال أبوها وزوجها : نحن نبلِّغ عنك أمير المؤمنين ، فأتيا فصدقا عوف بن مالك بما قال ، فقال عمر لليهودي : والله ماعلى هذا عاهدناكم ، فأمر به فصُلِب ، ثم قال : يا أيها الناس فُوا بذمة محمد ﷺ [يعني بأهل الذمة] فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له .

قال سويد بن غفلة : فإنه لأول مصلوب رأيته [1].

وذكره الحافظ الهيثمي مختصرا من رواية الحافظ الطبراني وقال : ورجاله رجال الصحيح [2].

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر ﷺ غضبا شديدًا من أجل رجل يهودي ، وهذا بحد ذاته سمو في العدل والإنصاف ، وإن ماسبق ذلك من مقدرة ذلك اليهودي على الوصول إلى عمر بتلك السرعة والسهولة وسماعه منه دعواه يدل على المستوى الرفيع الذي بلغ إليه المجتمع الإسلامي في ذلك العهد من الحرية والعدالة والسرعة الفائقة في الحكم بين الناس والبتِّ في القضايا والمنازعات.

ولئن كان أمير المؤمنين عمر ﷺ قد أخذته الرحمة بذلك اليهودي وغضب من أجله ذلك الغضب الشديد ولمَّا يعرف جريمته فإنه هو الذي أوقع به تلك العقوبة المغلظة لما علم بجرمه الشنيع، وهكذا

---

(١) تاريخ دمشق ٤٧ / ٥٠ – ٥١ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٣ .

ضرب عمر مثلين في دقائق معدودات للاتصاف بالرحمة في أسمى معانيها وبالقوة في أبلغ صورها .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظان ابن منده وأبو نعيم من خبر عبد الملك بن يعلى الليثي أن بكر بن شداخ الليثي ﷺ – وكان ممن يخدم النبي ﷺ وهو غلام – لما احتلم جاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إني كنت أدخل على أهلك وقد بلغت مبلغ الرجال ، فقال النبي ﷺ : اللهم صدِّق قوله ولَقِّه الظفر ، فلما كان في ولاية عمر ﷺ وُجد يهودي قتيلا فأعظم ذلك عمر وجزع وصعد المنبر فقال: أفيما ولاني الله واستخلفني يُفتك بالرجال ، أُذَكِّر الله رجلا كان عنده علم إلا أعلمني ، فقام إليه بكر بن شداخ فقال : أنا به ، فقال : الله أكبر بُؤْتَ بدمه فهات المخرج ، فقال : بلى ، خرج فلان غازيا ووكلني بأهله ، فجئت فوجدت هذا اليهودي في منـزله وهو يقول :

وأشعث غرَّه الإسلام مني ... خــلوتُ بعرسه ليل التمام

أبيـــت على ترائبها ويمسي ... على جــرداء لاحقة الحزام

كـــأن مجامع الرَّبلات منها ... فئام ينهـــضـون إلى فـئام

فصدَّق عمر ﷺ قوله ، وأبطل دمه بدعاء النبي ﷺ[1] .

وهذا مثل آخر من اهتمام أمير المؤمنين عمر ﷺ بأهل الذمة وغضبه لهم واتجاهه نحو العدالة فيما بينهم وبين المسلمين .

وموقف غيرة وشهامة من ذلك الشاب بكر بن شداخ الليثي ﷺ، حيث أنقذ تلك المرأة المسلمة من ذلك اليهودي ، وحفظ على زوجها المسلم الغازي أهله .

وأخيرًا موقف آخر لأمير المؤمنين عمر حينما تذكَّر دعاء النبي ﷺ المذكور وعمل به في ذلك الموقف الحرج ، وهذا مثل من علمه الغزير واهتمامه الكبير بتطبيق كلام النبي ﷺ .

وأخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي عن شيوخه قالوا : وكتب عمر إلى عتبة[2]: أن أَوْفِدْ عليَّ وفدًا من صلحاء

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٧/ ١٣ .

(٢) يعني ابن غزوان عامله على البصرة .

جند البصرة عشرة ، فوفد إلى عمر عشرة فيهم الأحنف[1]، فلما قدم على عمر قال : إنك عندي مصدَّق وقد رأيتك رجلا فأخبرني أَأَن ظُلمت الذمة ؟ [2] ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك ؟ قال : لا ، بل لغير مظلمة ، والناس على ماتحب ، قال : فنعم إذًا .

وهذا مثل من أمثلة اهتمام عمر ﷺ بالعدل ومتابعة ولاته والسؤال عنهم حتى لايقع ظلم على أيديهم أو أيدي من يولونهم .

وإذا كان أهل الذمة قد حَظُوا باهتمام عمر وعدله فكيف بالمسلمين ؟! إنه يشعر بمسؤوليته عما يجري في أي جزء من بلاد الله ولو كان نائيا ولايكتفي بالتحري الشديد في اختيار الولاة ثم إلقاء المسؤولية عليهم ، ولذلك كان لايشعر بالراحة إلا إذا سأل الناس على مختلف طبقاتهم حتى يتأكد من إقرار العدل والقيام بأمور الدين .

ومن أجل ذلك كتب إلى عتبة بن غزوان كما جاء في هذه الرواية

---

(١) هو الأحنف بن قيس التميمي .

(٢) يعني أهل الذمة .

يقول : أَنِ اعْزُب الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يُدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي ، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدَّم إليكم فيما أخذ عليكم ، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونًا وناصرا [1].

ففي هذا تأكيد من أمير المؤمنين عمر ﷺ على ولاته بلزوم جانب العدل ، وحمل الناس عليه ، وهو إدراك منه لأهمية إقرار العدل في ثبات الهيمنة للمسلمين على أعدائهم ، واستقرار أمورهم .

وفيه تنفير من الغدر وتأكيد على الالتزام بالوفاء بالعهود وعدم الاغترار بقوة جيوش المسلمين وتوالي انتصاراتهم ، فإنهم إنما أُدِيلوا على أعدائهم بعدلهم ووفائهم ، فإذا جاروا وخانوا العهد لم يكونوا جديرين بنصر الله تعالى .

وقوله « فإنما أدركتم بالله ما أدركتم » تأكيد منه على استحضار عظمة الله جل وعلا ، وأن كل ما يوفَّق المسلم إليه في حياته من الخير

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٧٨ .

فإنه من الله وبالله تعالى ، فَلْيُلازم المسلم ذكره جل وعلا وَلْيَفِ بالعهد الذي عاهد ربه عليه من تنفيذ شريعته وإخلاص العمل له يكن الله دائما معه ، ومن كان الله معه فلن يُخْذَل ولن يُدال عليه ، وهذا المعنى واضح في قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

وإنما تصاب الأمة الإسلامية بما تصاب به لغفلة أفرادها عن ذكر الله تعالى وعدم استحضار عظمته وأنه بيده مقاليد الأمور كلها ، فيتضخم في أعينهم حجم القُوَى المادية ، وتتشكل تصوراتهم للنصر والهزيمة والنجاح والإخفاق على ضوء تعظيمهم للأمور المادية وتقلُّص استحضارهم معية الله تعالى ورقابته عليهم وعلى أعدائهم .

محاسبته سعد بن أبي وقاص في بناء بيت له :

لقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يحرص دائمًا على محاسبة ولاته وتفقد أمورهم ، فقد أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن سعد بن أبي وقاص لما بنى له بيتا في الكوفة ادَّعى الناس عليه مالم يقل ، وقالوا : قال سعد : سَكِّن عني الصُّوَيْت [1] ،وبلغ ذلك عمر وأن الناس يسمونه قصر سعد ، فدعا محمد بن مسلمة فسرَّحه إلى الكوفة ، وقال: اعْمِدْ إلى القصر حتى تُحرق بابه ، ثم ارجع عَوْدك على بَدْئِك ، فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطبًا ، ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب وأُتِيَ سعد فأُخبر الخبر ، فقال: هذا رسول أُرسل لهذا الشأن ، وبعث لينظر مَنْ هو ، فإذا هو محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه رسولا بأن : ادْخل ، فأَبَى، فخرج إليه سعد ، فأراده على الدخول والنـزول فأَبى ، وعرض عليه نفقة فلم يأخذ، ودفع كتاب عمر إلى سعد : بلغني أنك بنيت قصرا

(١) يعني أنه أمر بوضع باب لبيته ليمنع وصول صوت غوغاء الناس وهم في أسواقهم.

اتخذته حصنا ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس بابا ، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منـزلا مما يلي بيوت الأموال وأغلقه[1] ولاتجعل على القصر بابا تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت ، فحلف له سعد ماقال الذي قالوا .

ورجع محمد بن مسلمة من فوره ، حتى إذا دنا من المدينة فني زاده ، فتبلغ بلحاء من لحاء الشجر، فقدم على عمر وقد سنق [2] ، فأخبره خبره كله ، فقال: هلا قبلت من سعد ! فقال: لو أردت ذلك كتبت لي به ، أو أذنت لي فيه ، فقال عمر : إن أكمل الرجال رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل ، وأخبره بيمين سعد وقوله ،فصدَّق سعدا وقال: هو أصدق ممن روى

---

(١) هكذا جاء في رواية الطبري ولعله وأغلقها يعني بيوت المال ، لأنه قد نهاه أن يجعل لمنـزله بابا .

(٢) يعني ظهر عليه أثر الجوع والتعب .

عليه ومن أبلغني[1].

هذا وإن من أبرز ما نلاحظه في هذا الخبر اهتمام عمر ﷺ بأداء الحقوق لأصحابها، وتمكين أصحاب الحقوق من طلب حقهم من غير حواجز تمنعهم أو تضعف من شخصيتهم، فإذا شعر صاحب الحق والحاجة بأن المسؤول قد فتح بابه لسماع تظلم أصحاب الحق وعرفوا بأن حقهم سيصل إليهم من غير مشقة ولاضياع وقت طويل أو نفقة تفوق الحد الضروري المعتاد فإنهم يُقدمون على رفع حوائجهم وطلب حقوقهم أما إذا كان الأمر بضد ذلك فإن الإنسان قد يترك حقه تفاديًا لهذه العوائق المرهقة .

فلذلك وغيره اهتم عمر ﷺ بمحاسبة ولاته ، ووضع الضمانات الكافية لوصول أصحاب الحقوق والحاجات للمسؤولين دون مشقة أو عوائق .

ولاشك أن توافر هذه الضمانات التي تكفل راحة أصحاب

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٤٧ .

الحقوق والحاجات، وسرعة وصولهم إلى مطلوبهم ، حتى لو كانوا من غير المسلمين .. لاشك أن ذلك يُعدُّ مجالا مهما من مجالات الدعوة الإسلامية ، سواء في تثبيت وتقوية إيمان المسلمين ، أو باجتذاب غير المسلمين إلى الإسلام .

هذا ومن المقطوع به أن سعدا ﷺ لم يحتجب عن الناس ولم يُقصِّر في أداء حقوقهم والعدل بينهم ، ولم يتهمه عمر ﷺ بذلك ، ولكن عمر كان يراعي تثبيت قواعد عامة لتقرير العدل وتيسير حصول أصحاب الحقوق على حقوقهم ، وإذا كان سعد لم يُردْ ماخافه عمر حين أغلق باب بيته ، فإن من سيأتون بعد سعد لايؤمن عليهم أن يحتجبوا عن الناس ، وأن يعوقوا أصحاب الحقوق والحاجات عن بلوغ مرادهم، فكان تصرف عمر بهذه الشدة في إنكار هذا الأمر مقصودًا به إبلاغ جميع المسؤولين المعاصرين له ، ومن سيأتون من بعده بما يقتضيه عليهم واجب المسؤولية في الدين .

أما بالنسبة للفُرْس فإن هذا الحدث يُعدُّ أمرًا عظيما عندهم فإن الأمر بتحريق باب قصر متواضع من أجل حماية حقوق عامة الناس

يُعدُّ نوعا من الأحلام الخيالية ، حيث قد أَلِفَت أنظارهم منظر القصور الضخمة ذات الأبواب الحصينة والحرس المدججين بالسلاح والمظاهر الدنيوية الخلاَّبة، وكلها تكسر من شخصية العامة وتحرمهم من مجرد المطالبة بحقوقهم ، فهذا الحدث لاشك أن له أثرًا في اجتذاب الأعاجم للإسلام وإعجابهم بالمسلمين .

هذا ومماسنستفيده من مناقشة عمر مع محمد بن مسلمة بعد عودته من مهمته أن الإنسان إذا كُلّف بمهمة فإنه يعمل بوصية من كلَّفه ، فإذا عرض له أمر لم يكن فيه رأي لمن كلفه فإنه ينبغي له أن يتصرف فيه بالحكمة والحزم ، فمحمد بن مسلمة لم يأمره عمر بأن يأخذ نفقةً من سعد ولم ينهه عن ذلك ، فاجتهد محمد بموجب ماتقتضيه طاعة ولي الأمر فلم يقبل النفقة من سعد ، ولكن الحزم يقتضي بأن يتزود منه بما يكفيه في سفره خشية أن يتعرض للهلاك .

والحكمة تقتضي أن يدخل بيت سعد تطييبًا لخاطره ، وحفاظًا على مكانته بين المسلمين الذين هو مسؤول عنهم ، ولكنه اجتهد فرأى أن ماقام به من ضمن العمل بوصية أمير المؤمنين ، ولاشك أن الطاعة

من أهم الأمور التي تعين على النجاح في المسؤولية ، ولكنها مقيدة بالحكمة والحزم ، وذلك بالنظر إلى المحافظة على جوهر القضية التي كُلِّف بها الإنسان، ثم النظر بعد ذلك بما تقتضيه المصلحة العامة والخاصة .

وفي هذا المعنى قال له عمر : إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به .

جوابه لمن أمره بالتقوى :

أخرج المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال قال رجل لعمر ﷺ : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فو الله ما الأمر كما قلت: قال: فأقبلوا على الرجل فقالوا : لاتَأْلِت [1] أمير المؤمنين ، فلما رآهم أقبلوا على الرجل قال: دعوهم فلا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا ، ولاخير فينا إذا لم تُقَل لنا [2] .

---

(١) أي لاتنتقص .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٧٧٢ .

فهذه كلمة عظيمة من أمير المؤمنين عمر ﷺ قرر فيها وجوب التناصح بين الحاكم والمحكومين ، فلا خير في شُعوب تداهن في دينها ولاتقول كلمة الحق ، ولاخير في ولاة يخشاهم الناس ولايتجرؤون على أن يقولوها لهم ، وإذا كانت هذه الكلمة قد قيلت لأبي العدل أمير المؤمنين عمر فكيف يستعظم أحد أن تقال لمن هم دونه في ذلك بمراحل ؟!

تحاكمه مع أبَيّ بن كعب إلى زيد بن ثابت :

أخرج أبو زيد عمر بن شبة من خبر عامر الشعبي قال: كان بين عمر وأُبَيّ بن كعب رضي الله عنهما خصومة ، فجعلا بينهما زيد بن ثابت ﷺ ، فأتياه فضربا الباب فخرج إليهما فقال: ألا أرسلتَ إليّ يا أمير المؤمنين ؟ فقال : في بيته يُؤتَى الحَكَم ، فدخلا فقال: في الرحب والسعة ،وألقى وسادة،فقال–يعني أمير المؤمنين–: هذا أول جورك، فتكلما فقال لأبَيّ : بيِّنتك، وإن رأيت أن تُعفي أمير المؤمنين من اليمين فافعل ، فقال أبيّ : نعفيه ونصدقه، فقال عمر ﷺ : أيُقْضَى عليّ باليمين

ثم لا أحلف؟! فحلف ، فلما وجبت له الأرض وهبها لأُبيّ [1] .

فهذا مثل عظيم في العدل ، حيث يجلس أمير المؤمنين عمر ﷺ أمام القاضي ليحكم بينه وبين أحد أفراد رعيته ويأتي بنفسه إلى بيت القاضي الذي كان – آنذاك – هو المحكمة ، حيث كان القضاة يحكمون في بيوتهم أو في المساجد ونحو ذلك .

وحينما ألقى القاضي لأمير المؤمنين الوسادة أنكر عليه ووصفه بالظلم حيث لم يُسَوِّ بينه وبين خصمه، وفي هذا تثبيت لقاعدة من أهم قواعد العدل في الحكم .

وكان زيد بن ثابت ﷺ الذي ارتضاه أمير المؤمنين للحكم في غاية الأدب وتقدير أهل الفضل ،حيث عرض على أُبَيّ بن كعب ﷺ أن يعفي أمير المؤمنين من الحلف،كماأن أُبَيًّا كان قمة في الأدب وحسن الخلق،حيث أعفى أمير المؤمنين من الحلف وصدَّقه،ولكن عمر لم يرض بذلك بل أمضى ماحكم به القاضي،وقد بلغ درجة عالية في

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٥٥ .

العفو والإحسان حينما تجاوز عن ذلك ووهب الأرض لأُبَيّ بن كعب.

وإننا لنجد في هذه القضية مثلا عاليا من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم ، فقد جرت هذه القضية بين أعلى رجل في الدولة وبين رجل من سادة المسلمين وعلمائهم ، وهذا يبين لنا أن وقوع الخلاف بين المسلمين وتحاكُمهم إلى القاضي الشرعي لايُعدُّ عيبًا ولامنقصة ، ماداموا محتفظين بأخوتهم الدينية وأخلاقهم الإسلامية ، وإنما العيب والنقص فيما يقع بين ضعفاء الإيمان من السب والشتم والتهاجر والمخادعات بسبب وقوع الخلاف بينهم ، فهذا يُعدُّ من الانحطاط الخلقي ، بينما نجد الصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا درجة عالية من الرقي الأخلاقي ، حيث لم يُفسد الخلاف أخلاقهم ، ولم يقطع حبل الوصل بينهم .

إعلانه الاستعداد لإنصاف الرعية من الأمراء :

أخرج المؤرخ أبوزيد عمر بن شبَّة من خبر أبي فراس قال: خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ فقال : إني لم أبعث عمَّالي عليكم ليصيبوا

من أشعاركم ولا أبشاركم ولاأموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، ويقسموا فيئكم ، فمن فُعل به غير ذلك فليقُم فو الله لأُقِصَّنَّه منه،فقال عمرو بن العاص ﷺ : يا أمير المؤمنين إن كان رجل على رعية يؤدب بعض رعيته إنك لتُقِصَّه منه ؟ فقال:أنا لا أُقِصُّه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ أقَصَّ من نفسه !ثم قال : ألا لاتضربوا المسلمين فتذلُّوهم،ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولاتجمِّروهم في البعوث فتفتنوهم،ولاتُنـزلوهم الغياض فتضيِّعوهم[1].وأخرج ابن سعد نحوه من خبر عطاء[2] .

ففي هذا الخبر مثل من عدل أمير المؤمنين عمر ﷺ وتحرِّيه في رفع الظلم عن أفراد رعيته،وقوله «والله لأقصنَّه منه» محمول على وجود الظلم من الوالي وتجاوزه حدود الاعتدال، أما إذا كان هناك تجاوز من بعض أفراد الرعية فإنه يجوز للوالي أن يؤدبهم في حدود الاعتدال .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٠٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٣ .

وفي قـولـه «لاتضربوا المسلمين فتذلوهم » تنبُّه منه إلى أهمية رفع معنوية المسلمين وتقوية شخصياتهم ، ليكون عطاؤهم لدينهم وأمتهم كبيرا ، وإرشاد منه إلى تحاشي إذلالهم لأن المسلم إذا شعر بالذلة ضعف وانزوى ، وأصبح يعطي بجهد قليل .

وقـوله « ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم» يفيد بأنه يجب أن تبقى الصلة بين الوالي والرعية قائمة على المودة والاحترام بين الطرفين ، وذلك مبني على الرحمة والعدل من الوالي ، والشكر والاعتراف بالفضل من الرعية ، ومن الأمور المهمة التي تعكر صفو هذه الصلة وتضعفها أن يمنع الوالي حقوق الرعية فيحملهم على كفر النعمة ونكرانها بدلا من شكرها ، وفي مقابل التقصير الحاضر قد ينسى الأفراد الإنعام السابق ، وإذا ضعفت الثقة بين الوالي والرعية اختلَّت حياة الأمن وضعفت أسباب السعادة والرخاء .

وقـوله « ولاتجمِّروهم في البعوث فتفتنوهم» يعني ولاتطيلوا مدة غياب الجنود عن أهاليهم فتفتنوهم عن دينهم ، وفي هذا توجيه إلى لزوم المحافظة على مستوى الإيمان والاستقامة عند المسلمين، وأنه

لايجوز للولاة أن يعرِّضوهم للفتن التي تُضعف من تمسكهم بدينهم .

وقوله« ولاتنـزلوهم الغياض فتضيِّعوهم » الغياض هي مجتمع الشجر في مغيض الماء ، وإذا نزل الجيش فيها تفرقوا فيسهل على الأعداء تصيدهم ، فلذلك نهى أمير المؤمنين عن ذلك حتى لايتعرض أفراد الجيش لسهام الأعداء .

اهتمامه بحراسة المسلمين في الليل :

من مواقف أمير المؤمنين عمر ﷺ في مجال تفقد أحوال المسلمين ما أخرجه الإمام الطبري من طريق بكر بن عبد الله المزني قال : جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه ، فجاءت المرأة ففتحته ، ثم قالت له : لاتدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي، فلم يدخل حتى جلست ، ثم قالت : ادخل ، فدخل ثم قال : هل من شيء ؟ فأتته بطعام فأكل، وعبد الرحمن قائم يصلي ، فقال له : تجوز أيها الرجل [1] ، فسلم عبد الرحمن حينئذ ، ثم أقبل عليه فقال : ماجاء

---

(١) يعني خفف صلاتك .

بك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟ فقال: رُفْقَةٌ نزلتْ في ناحية السوق خشيت عليهم سرّاق المدينة ، فانطلقْ نحرسهم ، فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان. فَرُفع لهما مصباح ، فقال عمر : ألم أَنْهَ عن المصابيح بعد النوم ! فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم، فقال: انطلق فقد عرفته ، فلما أصبح أرسل إليه فقال: يافلان كنت وأصحابك البارحة على شراب ؟ قال: وماعلمك يا أمير المؤمنين ؟ قال : شيء شهدته ، قال : أو لم ينهك الله عن التجسس؟ ! قال : فتجاوز عنه .

قال بكر بن عبد الله المزني : وإنما نهى عمر عن المصابيح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد [1] .

نجد في هذا الخبر فهم عمر العميق لمجالات العبادة وتقديم الأهم على المهم . فحينما كان بعض المسلمين بحاجة إلى عمر وعبد

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥ .

الرحمن بن عوف كان أمر احتياجهم مقدما على صلاة النفل، فالصلاة عبادة ، وخدمة المسلمين أيضا عبادة ، ومادامت الصلاة نفلاً فإن مانزل من حاجة المسلمين مقدم على ذلك ، لأن الصلاة عبادة يقتصر نفعها على صاحبها،وخدمة المسلمين عبادة يتعدى نفعها للمسلمين.

ولقد كان هذا الأمر واضحًا لدى الصحابة رضي الله عنهم ولذلك لم ينكر عبد الرحمن على عمر أن أمره بتخفيف الصلاة وإنهائها من أجل المشاركة في خدمة المسلمين، ولم ير أن غيرهما من صغار المسلمين أولى بالقيام بهذه المهمة لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من خلال كونه عبادةً وعملا صالحًا ، فهو أمر يتنافسون عليه ، ولايكلونه إلى غيرهم ، لأنهم يرون أنفسهم أحوج إلى الأجر من غيرهم ، وإن لهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي قال لمن عرض عليه أن يستريح في السفر «ما أنت بأقوى مني ولا أنا بأغنى منك عن الأجر»وقد كان النبي ﷺ أراد جمع الحطب لرفقته .

ونجد في هذا الخبر مثلا مهما للوقوف عند كتاب الله تعالى ، فلقد كان عمر رضي الله عنه مُقْدِما على التحقيق في أمر أولئك الذين اجتمعوا على

الشراب ، ولكن حينما ذكَّره أحدهم بقوله تعالى ﴿ولاتجسسوا﴾ تجاوز عنهم ، فلم يكمل التحقيق في الأمر لكون الاشتباه في أمرهم نتج عن التجسس عليهم ، وهو أمر منهي عنه .

وتجاوز عمر عنهم محمول على عدم ثبوت مايوجب إقامة الحد عليهم .

وقد ذكر القرطبي رحمه الله نحوًا من هذه الرواية وفيها أن عمر لما دنا من البيت المذكور قال له عبد الرحمن بن عوف : أرى أنَّا قد أتينا مانهى الله عنه ، قال الله تعالى ﴿ولاتجسسوا﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم [1] .

هذا وإذا كان الله جل وعلا قد نهى عن التجسس حتى في معرفة المخالفات التي في إزالتها صلاح المجتمع ، فكيف بمن يتجسسون على المسلمين في خاصة أمرهم ، وينقلون أخبارهم دون علمهم ؟!

وكما كان أمير المؤمنين عمر ﷺ عميق الشعور بالمسؤولية نحو

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٣٣٣ .

المسلمين في أرواحهم وأمنهم ، فإنه كذلك في الاهتمام بحفظ أموالهم وتنميتها .

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قدمت رفقةٌ من التجار فنـزلوا المُصَلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نحرُسَهم الليلة من السّرَق؟ فباتا يحرسانهم ويصليّان ماكتب الله لهما ، فسمع عمر بكاءَ صبيّ فتوجّه نحوه فقال لأمه : اتّقي الله وأحْسنِي إلى صبيّك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك ، إني لأراك أمّ سوءٍ ، مالي أرى ابنك لايقرّ منذ الليلة ؟ قالت : ياعبد الله قد أبْرمْتَني منذ الليلة ، إني أريغُه عن الفطام فيأبَى ، قال: ولِمَ ؟ قالت: لأن عمر لايفرضُ إلاّ للفُطُم ، قال : وكم له ؟ قالت: كذا وكذا شهرًا ، قال: ويحك لاتُعْجليه ! فصلى الفجر وما يَستبينُ الناسُ قراءته من غلبة البكاء ، فلمّا سلّم قال: يابؤسًا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين ! ثم أمَرَ مناديًا فنادى : ألا لاتُعْجلِوا صبيانكم عن الفطام فإنّا نفرض لكلّ

مولود في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق : إنّا نفرض لكل مولود في الإسلام [1] .

فهذا مثل من قيام أمير المؤمنين عمر ﷺ بمسؤوليته الكاملة في رعاية أفراد أمته وحمايتهم ، ولقد كان بإمكانه أن يوكل بالحراسة أفرادًا يقومون بهذه المهمة ، ولكنه يريد أن يجعل من نفسه مثلا عاليًا لأمرائه في أنحاء الأرض ، فحينما يسمعون هذا الخبر يتحمسون لأداء مسؤوليتهم ، ويجافيهم النوم ليقوموا بالإشراف على أعمالهم .

وفي آخر الخبر موقف عظيم لأمير المؤمنين عمر في الشعور بالمسؤولية والخشية من الله جل وعلا، حيث تمخض هذا الخبر عن تغيير نظام من أنظمة العطاء ، فصار عمر يفرض لكل مولود في الإسلام ، حتى لاتعجل الأمهات بفطام أولادهن فيتضرروا بذلك، ومع أنه مجتهد في النظام الأول ولم يظلم الرعية بذلك حيث إن الرضيع لايحتاج إلى طعام وبذلك فإنه لايحتاج إلى نفقة فإن سوء

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠١ .

الرعاية من بعض الأمهات جعل عمر يُحمِّل نفسه مسؤولية كل ضرر يحصل على أولاد المسلمين ، وهذا من أعلى مايمكن تصوُّره من الشعور بالمسؤولية ، ولقد بلغ من تأثره بهذه الحادثة أن غلبه البكاء حتى وهو يصلي الفجر بالمسلمين .

فأي وجدان كان ينطوي عليه قلب عمر !!

وأي إحساس كان يعمر فكره الحي المتوقد !!

مثل من تفقده أحوال المسلمين في الليل :

كان عمر ﷺ يتفقد أحوال المسلمين في الليل كعادته ، عله يجد أناسًا منقطعين في سفرهم فيسعفهم ، أو يجد أمورًا تخالف الدين أو تخل بالأمن فيزيلها .

وهذه المهمة الشاقة كان يمكن أن يوكل بها عمر من يقوم بها من أفراد رعيته الذين هم أطوع له من بنانه ، ولكنه كان شديد الخشية من الله تعالى وعظيم التقدير للمسؤولية ، وقد حمله ذلك على أن يباشر هذا الامر الشاق بنفسه خشية أن لايبلغ غيره مبلغ مايريد من الاطمئنان التام على أحوال المسلمين .

وقد رُويت عن عمر في ذلك أخبار مهمة منها ما أخرجه الإمام الطبري من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أسلم العدوي مولى عمر قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث ، ، فقال: يا أسلم ، إني أرى هؤلاء ركبًا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان وقدر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون – يعني يتضورون جوعا – فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء – وكره أن يقول يا أصحاب النار–قالت: وعليك السلام ، قال: أأدنو؟ قالت: أدن بخير أوْدَغْ ، فدنا فقال: مابالكم ؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد ، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال : وأي شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر، قال: أي رحمك الله مايدري عمرَ بكم ! قالت:يتولى أمرنا ويغفل عنا ! فأقبل عليّ فقال:انطلق بنا.

وهذا مثل عظيم من تواضع عمر ﷺ واهتمامه بخدمة المسلمين حيث عرج على تلك النار التي رآها رجاء أن يقدم خدمة لأصحابها

في تلك الليلة الباردة .

وكان الواقع أعظم مما تصور عمر حيث شاهد واقع تلك المرأة وأبنائها ، وكان منظرًا يبعث على الحزن والرحمة لأقسى الناس فضلا عن أمير المؤمنين عمر الذي يخشى الله تعالى في عثرة بهيمة في أقصى البلاد .

وكان موقفا ساميا من عمر حينما شكته تلك المرأة إلى الله تعالى حيث أشفق على نفسه من تلك الشكوى فقال: أي رحمك الله ومايدري عمر بكم ؟ وإنما قال ذلك لعله يخفف من موجدتها عليه فيكون ذلك شافعا له عند الله تعالى الذي نصب أمام عينيه دائما خشيته والوجل منه، ولكن تلك المرأة ردت بما يزيد من إشفاق عمر وخوفه حيث قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا ! ولم تَعُدْ لغة الكلام مجدية في ذلك الموقف وإنما كان الموقف يستدعي الإسراع في نجدة تلك الأسرة المنكوبة، وهذا مافعله عمر .

يقول أسلم : فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عِدلاً [أي كيسًا] فيه كبة شحم فقال: احمله عليَّ فقلت: أنا أحمله عنك ،

فقال: احمله علي ، مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك فقال لي في آخر ذلك : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك ، قلت لا ، فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها .

وهكذا يبلغ تصور عمر لمستقبله الأخروي ، ويبني عليه سلوكه الدنيوي ، فهو أولا يهرول ولايمشي مشيا ، ثم هو يصرُّ على حمل الكيس الكبير على ظهره اتقاء مايخشاه من الحساب يوم القيامة على ماظن أنه تقصير منه في أمور الرعية .

ولم يكن مركزه الكبير الذي أهَّله لأن يكون أعظم رجل في العالم آنذاك .. لم يكن ليحول بينه وبين أن يجعل من نفسه عاملا متواضعا يحمل الأثقال على ظهره .

إنه مظهر من مظاهر العظمة والجلال ، تفتخر به الأمة الإسلامية عبر الأجيال .

إنه واقع مدهش وسلوك محير ، أن يتنازل أعظم رجل في العالم ليقوم بمهمة الحمالين البسطاء.

ولكن الذي يحل اللغز ويزيل الحيرة والدهشة قول عمر « أنت تحمل عني وزري يوم القيامة!»، إنه كلما عظمت الآخرة في عين المسلم صغرت في عينه الدنيا ومافيها ، ومن ثَمَّ يأتي بالعجائب من السلوك العالي الذي يظل أمامه أهل الدنيا خاشعين حائرين ..

إن مفتاح شخصية العباد في هذه الحياة الدنيا هو مقدار نظرهم إلى الآخرة ووزنها في تفكيرهم ، فإن كانت الآخرة هي التي تتمثَّل أمام خيالهم عند كل سلوك يقومون به في هذه الحياة الدنيا فإنهم يعيشون سعداء ويُسعد الله بهم الأمة ، ويصلح بهم ما اعوج من سلوكها ، ويأمنون بإذن الله تعالى من الوقوع في الزلل والمهالك ، وإن كان الذي يبرز هو الحياة الدنيا بما فيها من مال وجاه فالويل لهؤلاء ولمن هم تحت ولايتهم ، والخراب والدمار هو الذي يتوقع من خلال سلوكهم.

إلى أن قال أسلم : وقام – يعني عمر – وقمت معه فجعلَتْ – يعني المرأة – تقول: جزاك الله خيرًا أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قولي خيرًا ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني

هناك إن شاء الله !

لقد غمر المعروف والإحسان تلك المرأة حتى عقدت مقارنة بين هذا المحسن الكبير وبين أمير المؤمنين ، لما استقر في الأذهان بأن الإمام الذي استرعاه الله جل وعلا أمر الأمة مسؤول عن كل فرد من أفرادها ، ولم تكن تدري أن الذي تخاطبه هو أمير المؤمنين، وماكان يدور في خَلَدها أن الله سبحانه قد ساقه إليها ليقضي أمرين كل واحد منهما بالغ الأهمية : أمر إنقاذ تلك المرأة وأبنائها من الجوع ، وأمر إنقاذ أمير المؤمنين من الإخلال بالمسؤولية فيما لايعلم ، وأمر ثالث لايقل عنهما ، وهو أن يسطر التاريخ هذه الحادثة المهمة بمداد الفخار والعز الذي يرفع رؤوس المسلمين أمام العالم ، وينشئ الأجيال المتعاقبة على القدوة الحسنى والتربية الفاضلة .

وبعد ذلك هل اكتفى أمير المؤمنين بما قدم لتلك المرأة وأولادها من خدمات جليلة؟! يقول أسلم : ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع ، فجعلت أقول له : إن لك شأنا غير هذا ، وهو لايكلمني ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ، ثم ناموا

وهدؤوا ، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل علي فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم،فأحببت أن لاأنصرف حتى أرى مارأيت منهم [1].

الله أكبر ما أعظمك ياعمر ! وما ألطف مشاعرك وأحاسيسك ! إن عمر العظيم لم يشغله تأمين الأمور المادية عن ملاحظة النواحي المعنوية ، لقد كان رأى الصبية وهم يبكون ويتضاغون من الجوع ، وهو منظر مؤلم لأصحاب النفوس الأبية ، وإذا كان عمر قد ملأ بطونهم بالطعام فإن هول المنظر السابق لايزال يعمل عمله في حسه المرهف ، ونفسه الجياشة ، فأحب أن يمحو هذا المنظر برؤية الأطفال وقد بدت عليهم مظاهر الفرح والسرور .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه الإشادة بجرأة أمير المؤمنين عمر الخارقة وإيمانه الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره ، حيث كان يخرج ليلا وليس معه حرس والمسلمون في حال حرب ضروس شاملة مع أعدائهم في الشرق والغرب ، وفي المدينة عدد كبير من الأعاجم الذين

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٥٣ .

فتحت بلدانهم، وأزيلت ممالكهم أو أضعفت على أيدي المسلمين ، ومع ذلك يخرج خارج المدينة وليس معه إلا مولاه أو أحد أصحابه ، ولاشك أن هذا يُعدُّ مثلا عاليًا للشجاعة النادرة والإيمان القوي واليقين الراسخ .

طلبه من سعد أن يقتص منه :

ذكر الحافظ ابن كثير من حديث الإمام الطبراني بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد [يعني ابن أبي وقاص ﷺ] يقال لها : زبراء، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح، فشد عليها عمر بالدرة،وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة، فذهب سعد يدعو على عمر،فناوله الدرة وقال:اقتص مني فعفا عن عمر[1] .

فهذان مثلان من مكارم الأخلاق يطبقهما عظيمان من عظماء الصحابة رضي الله عنهم، فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تناول سعد بن أبي وقاص ﷺ بالعصا في ساعة غضب بسبب تلك الجارية

(١) البداية والنهاية ٨/ ٧٦ ، وأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب – منتخب كنز العمال٥/ ٧١-.

التي لم تلتزم بالاحتشام ، وسعد أقدم على الدعاء على عمر في ساعة غضب مما حدث ، لكن أمير المؤمنين ندم على ماكان منه نحوه فأعطاه العصا ليقتص منه ، حتى يخرج من دنياه ولم يحمل حقا لمسلم ، فهل يفعل سعد ذلك ؟!

إنه لايمكن أن يقدم على ضرب أمير المؤمنين ، ويكفيه نبلا وتواضعا من أمير المؤمنين أنه أعطاه العصا ليقتص منه ، فكان العفو من سعد ، واطمأنت نفس عمر حينما عفا عنه أخوه سعد رضي الله عنهما .

محاسبته أهله وأبناءه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: اشتريت إبلا وارتجعتها إلى الحِمَى ، فلما سمنَتْ قدمت بها ، قال: فدخل عمر بن الخطاب السوقَ فرأى إبلا سمانا ، فقال : لمن هذه ؟ قيل لعبد الله بن عمر ، قال: فجعل يقول : ياعبد الله ابن عمر بخٍ بخٍ ، ابن أمير المؤمنين ، قال: فجئته أسعى ، فقلت : مالك ياأمير المؤمنين ؟ قال: ماهذه الإبل؟ قلت: أنا اشتريتها وبعثت

بها إلى الحمى ابتغي مايبتغي المسلمون ، قال فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، ياعبد الله بن عمر اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين[1] .

فهذا الخبر يدل على ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، فهو لايريد أن يستفيد أولاده من جاه الخلافة ويرى أن ما استفادوه من مال من هذا الطريق فالمسلمون أحق به.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: رأيت عبد الله بن الأرقم صاحب بيت مال المسلمين في زمن أبي بكر وعمر أتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين إن عندنا حلية من حلية جلولاء ، آنية من ذهب وورق [2] فانظر أن تفرغ لذلك يوما فترى فيه رأيك، فقال: إذا رأيتني فارغا فآذني ، فجاءه يوما فقال: أراك اليوم فارغا ،قال: أجل فابسط لي نطعا في الأشاء – وهـو النخل

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٢) الورق بكسر الراء الفضة .

الذي لايسقى – فبسط لـه فيه نطعا ،ثم أُتِي بذلك المال، فصُبَّ عليه، فدنا عمر حتى وقف عليه وقال : اللهم إنـك ذكـرت وقلت ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [آل عمران : ١٤] وقلت : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:٢٣] . وإنا لانستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا،اللهم فاجعلني أنفقه في الحق،وأعذني من شره.

قال : وأُتِيَ عمر بابن له يحمل يقال له : عبد الرحمن ، فقال: يا أبتاه هب لي خاتما، فقال له عمر : اذهب إلى أمك تسقيك سويقا[1] .

وهكذا حينما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ نفائس الأموال التي أفاءها الله تعالى على المسلمين أدركته الخشية من الله جل وعلا ، فتفتق فكره عن تذكر الآيات التي تزهد المسلم في الحياة الدنيا وتسمو بفكره نحو آفاق الحياة الآخرة ، ومع ما اشتهر به عمر من الورع والزهد فإنه يشير إلى طبيعة الإنسان التي جبل عليها من الفرح

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢٥ .

بطيبات الحياة الدنيا ، ثم يلجأ إلى الله سبحانه بالدعاء ليسدده إلى الطريق القويم في إنفاق المال ، وأن يعيذه من فتنته .

وفي آخر الخبر مثل من ورع أمير المؤمنين عمر ﷺ ، حيث لم يسمح لابنه الصغير أن يأخذ شيئا من مال المسلمين العام .

ويشبه ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضا من خبر عبد الله ابن واقد بن عبد الله بن عمر قال: بعث أبو موسى من العراق إلى عمر ابن الخطاب بحلية ، فوضعت بين يديه ، وفي حجره أسماء بنت زيد ابن الخطاب ، وكانت أحب إليه من نفسه ، لما قتل أبوها باليمامة عطف عليهم، فأخذت من الحلية خاتما فوضعته في يدها ، وأقبل عليها يقبلها ويلتزمها،فلما غفلت أخذ الخاتم من يدها،فرمي به في الحلية، وقال:خذوها عني [1].

هذا ومن النماذج الدالة على قيام أمير المؤمنين عمر ﷺ بالمسؤولية وأداء الأمانة ماذكره ابن جرير رحمه الله من أن عمر كان إذا

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢٥ .

أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله ، وتقدم إليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره، ثم روى حديثا بإسناده عن سالم بن عبد الله قال : كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير – يعني إلى اللحم – وأُقسم بالله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة[1] .

وهذا تركيز بالغ على القدوة الحسنة ، وجمع بين القول والعمل ، فإن الحاكم إذا أمر بأمر، والعالم الداعية إذا دعا إلى فعل خير أو ترك شر فإن أول ماينظر الناس إليه وإلى أسرته، فإن رأوا تطبيقا والتزاما أخذوا قوله مأخذ الجد وسارعوا إلى التطبيق ، وإلا فإن قوله لايتجاوز الآذان ويذهب أدراج الرياح، وقد يطبقون من غير قناعة بصورة ضعيفة ثم يحصل التفلت بعد ذلك .

وتهديد عمر رضي الله عنه أفراد أسرته بتضعيف العقوبة يلاحظ فيه أمران:

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٦ .

الأول : ارتكاب المخالفات ، وهذا يشتركون فيه مع غيرهم .

الثاني : صدُّ الناس عن الالتزام ، وهذا تنفرد به أُسَرُ المسؤولين ومن لهم بهم علاقة لأنهم موضع القدوة .

ولئن دلَّ هذا على ورع عمر الشديد فإنه يدل أيضًا على حزمه البالغ في تنفيذ مايراه في صالح المجتمع الإسلامي .

مثل من اهتمامه بأموال المسلمين :

من أمثلة اهتمامه البالغ في هذا المجال ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي يزيد المديني قال: حدثنا مولى لعثمان بن عفان قال : كنت رديفا لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم ، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الأبل يدخلها الحظيرة ، حظيرة إبل الصدقة ، فقال عثمان : من ترى هذا ؟ قال : فانتهينا إليه فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقال : هذا والله القوي الأمين.

وأخرج أيضًا من حديث أبي بكر العبسي قال: دخلت حَيْرَ الصدقة – يعني الحظيرة – مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ،

قال : فجلس عثمان في الظل يكتب، وقام على رأسه عليٌّ يملُّ عليه مايقول عمر ، وعمر في الشمس قائم في يوم حار شديد الحر ، عليه بردان أسودان، متزرًا بواحد ، وقد لف على رأسه الآخر ، يَعُدُّ إبل الصدقة ، يكتب ألوانها وأسنانها ، فقال علي لعثمان – وسمعته يقول نَعْتَ بنت شعيب في كتاب الله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص :٢٦] ، ثم أشار عليّ بيده إلى عمر، فقال: هذا القوي الأمين[1] .

وهكذا رأينا اهتمام عمر الشديد بأموال الأمة ، واستهانته براحته وصحته من أجل صيانة وحفظ هذه الأموال ، وفي سبيل الأهداف العالية يهون على النفوس العظيمة تحمل المشاق، ولعل إحساس عمر الكبير بالمسؤولية ، واستغراق فكره في أداء عمل يراه مهما قد أنساه الإحساس بحرارة الشمس ولفح السموم .

وإذا كانت النفـوس كبارا تعـبت في مـرادها الأجسام

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ .

ولقد استحق عمر بجدارة ثناء كبار الصحابة عليه بالقوة والأمانة فهو القوي الأمين حقا الذي لم تشغله كبار الأمور عن صغارها ، وهو بعمله هذا نموذج حي للشعور بالمسؤولية والدقة في محاسبة النفس .

تورعه في صرف مال المسلمين :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب قال: انكسر بعير من مال الله، فنحره عمر فصنعه ، ودعا عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال العباس بن عبد المطلب: ياأمير المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا أصبنا منه وتحدثنا عندك فقال عمر: يهون عليك جوع امرأة بسلع [1] ؟ إنه كان لي صاحبان عملا عملاً وسلكا طريقا ، إن عملت بمثل عملهما سلكت طريقهما ، وإن عملت بغيرها لم أسلك في طريقهما [2] .

---

(١) سلع هو الجبل المعروف في المدينة ، والمعنى أننا إذا أنفقنا المال العام على الكبار قصرنا في حق الصغار .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٤٠ – ٣٤١ .

فالمنهج واضح عند عمر ﷺ فهو ملتزم بمنهج رسول الله ﷺ ومنهج صاحبه أبي بكر الصديق ﷺ ، وقد استقام على ذلك طوال حياته ، وهذا قد جنبه الزلل وسار به على الطريق القويم .

محاسبته نفسه في رعيته :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سلامة بن صبيح التميمي قال: قال الأحنف بن قيس : ماكذبت قط إلا مرة ، قالوا : وكيف يا أبا بحر ؟ قال: وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فلما دنونا من المدينة قال بعضنا لبعض : لو ألقينا ثياب سفرنا ولبسنا ثياب صوننا فدخلنا على أمير المؤمنين والمسلمين في هيئة حسنة وشارة حسنة كان أمثل، قال : فلبسنا ثياب صوننا وأدخلنا ثياب سفرنا ، حتى إذا طعنَّا في أوائل المدينة لقينا رجل فقال: انظروا إلى هؤلاء أصحاب دنيا ورب الكعبة،قال:فكنت رجلا ينفعني رأيي ، فعلمت أن ذلك ليس بموافق للقوم،فعدلت فلبستها وأدخلت ثياب صَوْني العَيبة [1] وأشرجتها [2]

---

(١) العيبة وعاء من الجلد وهو بمنـزلة الحقيبة الآن .

(٢) أي ربطتها .

وأغفلت طرف الرداء ، ثم ركبت راحلتي فلحقت أصحابي، فلما دفعنا إلى عمر نَبَتْ عيناه عنهم ووقعت عيناه علي ، فأشار إلي بيده فقال: أين نزلتم؟ قلت: في مكان كذا وكذا ، قال فقال : أرني يدك ، فقام معنا إلى مناخ ركابنا ، فجعل يتخللها ببصره ثم قال : ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه ؟ أما علمتم أن لها عليكم حقا ؟ ألا تقصدتم بها في المسير؟ ألا حللتم عنها فأكلت من نبت الأرض ؟ فقلنا : يا أمير المؤمنين إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا أن نسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بالذي يسرهم ، فحانت منه التفاتة فرأى عيبتي فقال: لمن هذه العيبة ؟ قلت: لي ياأمير المؤمنين ، قال: فما هذا الثوب ؟ قلت: ردائي، قال: بكم ابتعته ؟ فألغيت ثلثي ثمنه ، فقال: إن رداءك لحسن لولا كثرة ثمنه .

قال : ثم انصفق راجعا ونحن معه ، فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعْدِني [1] على فلان فإنه قد ظلمني ، قال: فرفع

---

(١) أي انصرني .

الدِّرة فخفق بها رأسه ، فقال : تَدَعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدني ، أعدني ! قال: فانصرف الرجل وهو يتذمر ، قال: علي بالرجل ، فألقى إليه المخفقة فقال : امتثل [1] ، فقال: لا والله ولكن أدعها لله ولك ، قال: ليس هكذا ، إما أن تدعها لله إرادة ماعنده ، أو تدعها لي، فاعلم ذلك، قال : أدعها لله .

قال : فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منـزله ونحن معه ، فافتتح الصلاة فصلى ركعتين وجلس فقال : كنتَ وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين ، فجاءك رجل يستعيذ بك فضربته ، ماتقول لربك غدا إذا أتيته ؟ قال: فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة ظننا أنه من خير أهل الأرض [2] .

---

(١) أي اضربني مثل ماضربتك .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٩١ – ٢٩٢ .

في هذا الخبر نماذج من سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وأخلاقه ، فبينما نراه رحيما بالبهائم ، يلوم أصحابها على إتعابها في السير نراه زاهدا في الدنيا حيث رأى ثمن ذلك الثوب كثيرا مع أن الأحنف لم يذكر له إلا ثلث ثمنه ، ثم نراه متواضعا عادلا حينما طلب من ذلك الرجل أن يقتص منه ، كما نراه غزير العلم حينما وجه ذلك الرجل إلى إخلاص العمل لله تعالى، ثم نراه خاشعا لله جل وعلا عظيم الخشية منه حيث صار يعاتب نفسه ويحاسبها على شدته في معاملة ذلك الرجل الذي تظلم له ، حتى حكم له الأحنف بمجموع تلك الفضائل بأنه من خير أهل الأرض ، بل هو في خلافته خير أهل الأرض .

وأخيرًا موقف أخلاقي للأحنف بن قيس التميمي حيث كان قد نزه نفسه من الكذب ماعدا تلك المرة التي ذكر ، وإن رجلا يعيش عشرات السنين لايمارس الكذب لهو رجل عظيم ، لأنه قلما يسلم الناس من فلتات اللسان .

خبره مع الحطيئة :

ذكر الحافظ ابن كثير من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: أمر عمر بإخراج الحطيئة من الحبس وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره ، فأُخرج وأنا حاضر فأنشأ يقول :

ماذا تقول لأفـراخ بـــــذي مرخ زغب الحواصل لاماء ولاشجر
غادرت كاسبهم في قعـر مظـلمة فارحم هداك مليك الناس ياعمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إلــيك مقاليد النُّهَى البـشر
لم يؤثروك بـها إذ قـدمـــــوك لها لكـــــن لأنفسهم كانت بك الخِيَرُ
فامنن على صِبيةٍ بالرمل مسكنهم بين الأبـاطـح يغشاهم بها القدر
نفسي فـداؤك كـم بيني وبــينهم مـن عرض أودية يَعْمَى بها الخبر

قال : فلما قال الحطيئة : ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ، بكي عمر، فقال عمرو بن العاص: ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة [1] .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩٧ – ٩٨ ، والخضراء هي السماء والغبراء هي الأرض .

فهذا مثل من أمثلة كثيرة على ماكان يتصف به أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ من الرحمة والشفقة ، حيث بكى حينما ذكر له الحطيئة أبناءه الذين أصبحوا لاعائل لهم، ولقد عَدَّ عمرو بن العاص ﷺ ذلك منتهى العدل وكماله ، لأن مساوئ الحطيئة الكثيرة تجعل قلوب الناس عليه قاسية ، لأنه كان كثير الهجاء للناس ، وقد سجنه عمر ﷺ لحماية أعراض الناس منه .

خبره مع سلمان حينما اعترض عليه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر العتبى قال: بُعث إلى عمر بِحُلَل فقسمها فأصاب كل رجل ثوب ، ثم صعد المنبر وعليه حلة ، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لانسمع ، فقال عمر : لم يا أبا عبد الله ؟ قال: إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا وعليك حلة، فقال: لاتعجل يا أبا عبد الله ، ثم نادى : ياعبد الله ، فلم يجبه أحد ، فقال ياعبد الله بن عمر، فقال: لبيك يا أمير المؤمنين ، فقال: نشدتك الله ، الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك ؟ قال: اللهم نعم ،

قال سلمان : فقل الآن نسمع [1] .

فهذا خبر جليل يكشف لنا صورة من واقع الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وذلك في العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، فأفراد الرعية يقولون الحق علنا إذا رأوا أمرا مجانبا للصواب غير هيابين ولامترددين ، والحكام يسمعون كلمة الحق بصدور رحبة وخضوع كامل للحق .

فأبو عبد الله سلمان الفارسي ﷺ كان جريئا حينما رد على أمير المؤمنين عمر ﷺ ، وكان في رده هذا يريد كشف الأمر للناس ، وإلا فإنه يعرف أن عمر لايفضل نفسه على أفراد الرعية بشيء ، وكان فقيها حينما ربط السمع والطاعة بالعدل ، وهذا يبين لنا أن العدل مع الرعية من شروط وجوب طاعتهم لحكامهم .

وأمير المؤمنين عمر كان متواضعًا عادلا حينما سمع كلام سلمان بصدر رحب وسماحة عالية، ولم يغضب من اعتراضه عليه .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٣٥ .

فرضي الله عنهم ما أعظمهم حكاما ، وما أعظمهم محكومين !!

خبره مع القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص :

أخرج ابن عبد الحكم من خبر أنس بن مالك ﷺ : أن رجلا من أهل مصر أتي عمر بن الخطاب ﷺ فقال : يا أمير المؤمنين عائذٌ بك من الظلم ، قال: عذت معاذًا ، قال: سابقتُ ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه ، فقدم فقال عمر : أين المصري؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين .

قال أنس : فضرب ، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال للمصري : ضع على صلعة عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه فقال عمر لعمرو : مُذ كم تَعَبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني [1] .

فهذا موقف عظيم في العدل ، أنصف به أمير المؤمنين عمر ﷺ رجلا من أهل مصر من ظالمه ابن حاكم مصر .

لقد كان عمرو بن العاص ﷺ مشهورًا بالعدل والحكمة ، ولكن ابنه استغل مكانة أبيه فاعتدى على ذلك المصري ، ورفع شعار العصبية ، حيث اعتز بنسبه وجاه أبيه، فاعتبر أنه من طائفة الأكرمين وأن ذلك المصري من طائفة الأذلين ، وحيث إنه لا استعباد في الإسلام إلا في حال الحرب فإن أمير المؤمنين عمر ﷺ قد فزع من سماع تلك الكلمة التي تنذر بخطر نشوء الطبقية في المجتمع الإسلامي ، فلذلك كان علاجه لتلك الظاهرة الخطيرة حازما وحاسما.

إن الناظر في هذه القضية لأول وهلة يرى غرابة ذلك الحكم ، حيث تم استدعاء والي مصر من أجل تلك القضية الصغيرة مع

---

(١) منتخب كنز العمال ٤/ ٤٢٠ .

مايترتب على ذلك من مشقة السفر واحتمال تأخير بعض الأحكام التي لايبت فيها إلا عمرو نفسه ، وكان يكفي أن يتم استدعاء صاحب القضية وهو ابن عمرو ، ولكن أمير المؤمنين عمر كان يعلم أن ابن عمرو ماكان له أن يستطيل على الناس إلا بجاه أبيه، ولذلك أمر عمر المصري بأن يضرب عمرًا كذلك ، فأراد عمر بذلك أن يقرر العدالة في أبلغ صورها ، وذلك بحضور صاحب القضية وأبيه الذي انخدع ابنه بسلطانه فقال هذه الكلمة العظيمة التي أصبحت مثالا لكمال العدل والإنصاف «مُذْكم تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

ولاشك أن تلك الكلمة العظيمة كان لها مردود كبير في الدعوة إلى الإسلام ، فإنها ترفع من معنوية جميع المصريين وكل الشعوب الذين تبلغهم ، حيث أظهرت مايدعو إليه الإسلام من محاربة كل أنواع العصبية وإقرار المساواة بين الناس .

لقد كانت هذه الكلمة مثلا عاليا في كمال العدل وسمو الأخلاق، حتى أصبح النصارى يستشهدون بها على عدالة الإسلام ،

لقد نادى أحد الصادقين في مجلس البرلمان المصري وهو الشيخ صلاح أبو إسماعيل بتطبيق الإسلام ، فقام أحد الأعضاء من النصارى وقال: ولِمَ لانوافق على تطبيق الإسلام ؟ وهل رأينا في التاريخ من الإسلام إلا العدالة منذ أن أمر عمر بن الخطاب غلاما من أبناء القبط بأن يقتص من ابن أمير مصر ؟!

وهكذا حوَّل أمير المؤمنين عمر عدالة الإسلام إلى واقع تطبيقي خلَّده التاريخ حتى صار المسلمون في كل عصر يذكرون به عدالة الإسلام ، ورحم الله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما قالت في وصف عمر : كأنما خُلق للإسلام .

بيان أن الولاية لم تغير من أخلاقه :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر عروة بن الزبير أن عمر ﷺ خطب فقال: إن الله عز وجل قد ولاني أمركم ، وقد علمت أنفع مابحضرتكم لكم ، وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره ، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير

الذي وليت من خلافتكم من خلُقي شيئا إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي ، أَعْقِل الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة أو ظُلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذنِّي فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولايحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إليّ ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إليَّ صلاحكم عزيز عليّ عتبكم ، وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله ، وأهل بلد لازرع فيه ولاضرع إلا ماجاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه. ومطلع على مايحضرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع مابعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله تعالى [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٥ .

هذا الخبر مثل من أمثلة اتصاف عمر ﷺ بالتوحيد وقوة الإيمان والاتصال بالله تعالى، فهو حينما يذكر تحمله لولاية المسلمين يسأل الله تعالى أن يعينه على أداء ماتحمل وأن يحرسه من الوقوع في الخطأ ، وإن هذا لَيُعدُّ مظهرًا من مظاهر تمثُّل العبودية لله جل وعلا، فالإنسان مهما اتصف بالعظمة وتحلى بالمواهب الممتازة ووفق بالأعوان المخلصين فإنه عبد لله تعالى ضعيف بنفسه محتاج إلى عون ربه جل وعلا ، مفتقر إلى تسديده وتوفيقه .

ثم يشير إلى موضوع ثبات الشخصية واتزانها ، وذلك ببيان أن عمر الذي كان جنديا من جنود الإسلام هو عمر الذي أصبح خليفة على المسلمين ، وأن الخلافة لن تغير من نفسيته وأخلاقه، وذلك لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى الولاية والمسؤولية على أنها درجات رفيعة في الحياة الدنيا ، وإنما ينظرون إليها على أنها مجال من مجالات العمل الصالح ، وأنها تكليف وليست تشريفًا ، فإنْ أحسن فيها حاملها وعدل والتزم بضوابط عبوديته لله تعالى كان له الثواب العظيم عند الله جل وعلا، الذي منه ماجاء في قوله ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم

لاظل إلا ظله : إمام عادل » الحديث [1] .

وإن أساء وجار وتعالى وطغى فلم يلتزم بضوابط عبوديته لله تعالى فإنه يبوء بالعذاب الأليم يوم القيامة إذا لم يغفر الله له . ويقول حين لاينفعه الندم ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ٢٨ – ٢٩] .

ومن وصايا عمر رضي الله عنه النافعة في هذه الخطبة إرشاد المسلمين إلى اجتناب الظلم، وإنصاف إخوانهم من أنفسهم ، وعدم التعدي الذي يلجئ المعتدى عليه إلى التظلم والشكوى .

ويثبِّت هذا المعنى ببيان أنه ليس بينه وبين أحد من الناس محاباة ولامداراة ، وأن الأمر إذا رفع إليه فسيقر مايرى فيه من الحكم الشرعي .

وإن مما يثبت العدل ويجفف منابع الظلم ويقلل من وقوع الخصومات شعور المسلمين بقوة الوالي وحزمه وعدله بحيث لايحابي

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ ، الزكاة (٣/ ٢٩٢) .

سيدا لجاهه ولاغنيا لغناه ، ولايقبل شفاعة شافع في ظلم .

ثم يبين عمر ﷺ أن قيامه بهذه المسؤولية الكبرى يكون بأمرين: أن يطلع بنفسه على مايحضره في دار الخلافة من أمور الرعية ، وأن يوكِّل على مابَعُدَ عنه من يثق بهم من أهل الأمانة، وأنه لن يجعل أمانته إلا عند أهلها .

وإذا كان المسؤول يقوم بنفسه في أداء مسؤوليته أو يوكلها إلى أهل الأمانة فإنه يكون قد أدى ماعليه من واجب ، فإذا جاءت الأمور موافقة للحق ومحققة لمصلحة الأمة فهذا مايهدف إليه أهل الإخلاص، وإن كانت غير ذلك فإن المسؤول قد بذل جهده ، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: رأى عوف بن مالك كأن شيئًا دُلِّي من السماء ، فأخذ به رسول الله ﷺ فانبسط ثم دُلِّي ، فأخذ به أبو بكر فانبسط ، ثم ذُرِعَ الناسُ ففضلهم عمَر بثلاثة أذرعٍ ، فقصها عوف على أبي بكر ، فلمّا بلغ هذا المكان قال له عمر : دعنا من رؤياك ، فسكت عوف ، فلما

استُخلف قال لعوف : بقية رؤياك، قال: أليس أنت انتهرتني فأسكتني ؟ قال: إنّي كرهتُ أن تنعي إلى الرجل نفسه، هات رؤياك من أوّلها ،حتى بلغ:وذُرع الناسُ ففضلهم عمر بثلاثة أذرع – قال: فقلت: ففيم فضلهم عمر بثلاثة أذرع؟ فقيل لي:إنّه خليفة ، وإنه شهيد ، وإنه لايخاف في الله لومة لائم،قال عمر:أما الخلافة فإن الله عز وجل يقول : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] ، فقد استخلفت ياعمر ، فانظر كيف تعمل ، وأما الشهادة فكيف لي بها وحولي العرب ، وإن الله لقادر على أن يسوقها إليّ،وأمّا ألاأكون أخاف في الله لومة لائم فماشاء الله [1] .

وهكذا كان فهم أمير المؤمنين عمر ﷺ للخلافة ، فليست الخلافة لطلب زيادة الشرف والجاه ، ولا للذكر بين الناس ، وإنما هي مجال كبير للعمل ، فمن عمل فيها صالحا وعدل نال الأجر على ذلك

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٤٠٥ ، وأخرجه ابن سعد من خبر أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وذكر نحوه – طبقات ابن سعد ٣/ ٣٣١ .

من الله تعالى ، ومن أساء وظلم فإنه يبوء بالإثم ويكون معرضا للعذاب، وكون عمر يستحضر الآية التي استشهد بها دليل على عمق علمه ودقة فهمه .

ومما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر سعيد بن المسيب أن عمر قال: أيما عامل لي ظَلَم أحدا فبلغتْني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته [1] .

وهكذا يكون فهم المسؤولية ، فإن المسؤول المباشر ليست مسؤوليته مطلقة،ولاتبرأ ذمة المسؤول الاعلى بأحكام المسؤول المباشر، بل يكون مشاركا له في الإثم عند المخالفة إذا بلغه ذلك، كما أن المباشر مسؤول عن المخالفة إذا صدرت من الأعلى مسؤولية مشاركة ، فلا يجوز له تنفيذ مايراه باطلا وإن كان قد صدر ممن هو أعلى منه.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥ .

اهتمامه بالبهائم :

لقد كان اهتمام أمير المؤمنين عمر ﷺ بالمسؤولية كبيرًا حتى إنه شمل البهائم في الصحراء ، ومما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر قطن بن واهب بن عويمر بن الأجدع قال : إن عمر بن الخطاب كان يسير ببعض طريق مكة ، فسمع صوت راع في جبل فعدل إليه ، فلما دنا منه صاح : ياراعي الغنم ، فأجابه الراعي : ياراعيها ، فقال عمر: إني قد مررت بمكان هو أخصب من مكانك ، وإن كل راع مسؤول عن رعيته ، ثم عدَل صدور الرِّكاب [1] .

وهكذا مال بالإبل نحو ذلك الراعي ليذكره بمسؤوليته في رعي مواشيه ، وإن حاكما يشعر بمسؤوليته عن البهائم التي لاتقع تحت ملك دولته لجدير بأن يكون اهتمامه أكبر بأموال المسلمين العامة ، وإن أجدر من ذلك وأولى أن يهتم بأفراد رعيته فيختار لهم الطيب الأفضل ويجنبهم السيء الأرذل .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩١ – ٢٩٢ .

اهتمامه بالرعية :

من ذلك ما أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال : قال عمر : إذا كنتُ في منـزلة تسعني وتعجز عن الناس فو الله ماتلك لي بمنـزلة حتى أكون أسوة للناس [1] .

فهذا مثل أعلى في المساواة بين الراعي والرعية ، وتمثيل لخلافة النبوة ، حيث التساوي مع الرعية في نمط العيش ، فالولاية في الإسلام لاتعني الترفع بنوع من المعيشة ، لأن ذلك يعني وجود الطبقية التي كان عليها ملوك فارس والروم ، والتي كان من أهداف الإسلام محاربتها .

ومن ذلك ما أخرجه الطبري أيضًا من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: قال عمر : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمَّالهم فلا

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ .

يرفعونها إلي ، وأما هم فلا يصلون إلي ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لِنْعم الحول هذا [1] .

فهذا مثل مهم في شعور الوالي بمسؤوليته عن جميع أفراد رعيته ، حيث عزم أمير المؤمنين عمر ﷺ على السير في البلاد الإسلامية لسماع شكاوى الناس ، مع اجتهاده الدقيق في التحري في اختيار الولاة ومحاسبتهم .

وأخرج أيضًا من خبر أسلم العدوي مولى أمير المؤمنين عمر ﷺ قال: بعثني عمر بإبل من إبل الصدقة إلى الحِمَى فوضعت جهازي على ناقة منها ، فلما أردت أن أصدرها قال: اعرضها علي ، فعرضتها عليه فرأى متاعي على ناقة منها حسناء ، فقال : لا أم لك ! عمدت إلى

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ – ٢٠٢ .

ناقة تغني أهل بيت من المسلمين ! فهلاّ ابن لبون بوالا ، أو ناقة شصوصا ![1] .

فهذا مثل من اهتمام أمير المؤمنين عمر ﷺ بأموال المسلمين العامة وتقديم مصالحهم على المصالح الخاصة ، كما أنه مظهر من مظاهر مراقبة الله تعالى ، حيث لم يجامل الحاضر على حساب مصلحة الغائب .

وأخرج الطبري أيضًا من خبر أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب : إن ها هنا رجلا من أهل الأنبار له بَصَر بالديوان ، لو اتخذته كاتبا ! قال عمر : لقد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين[2] .

يريد قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران:١١٨] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٢ ، وابن اللبون ولد الناقة إذا كان في العام الثاني أو دخل في الثالث ، والشصوص الناقة الغليظة اللبن .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٢ .

فجواب أمير المؤمنين عمر ﷺ يُعدُّ إدراكًا عميقا لمبدأ الولاء والبراء ، حيث لايجوز وضع أمور المسملين في يد غيرهم لأنهم لايؤتمنون على مصلحة الأمة ، وفي هذا اهتمام بدرء المفاسد وإن كانت قد لاتوجد إلا في المستقبل .

وأخرج ابن جرير الطبري أيضا من خبر أبي عمران الجوني قال : كتب عمر إلى أبي موسى[1] :إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم، فأكرم من قِبَلَك من وجوه الناس، وبِحسْب المسلم الضعيف من العدل أن يُنصفَ في الحكم وفي القسم [2] .

فهذه وصية من أمير المؤمنين عمر ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ بإكرام وجوه المسلمين ، فالناس قادة وعامة ، وتتفاوت درجات القيادة بتفاوت سمعة القادة، والقادة يتكوَّنون في المجتمع حسب مايقدمون لمجتمعهم من العلم النافع ومكارم الأخلاق كالكرم

---

(١) هو أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٣ .

والشجاعة والوفاء والإيثار ، فهؤلاء وجوه الناس الذين يرفعون حوائج المحتاجين لمن بيدهم الأمر، وإكرام هؤلاء السادة من عوامل نجاح الحكم واستقرار المجتمع ، وهؤلاء الذين تتكون سيادتهم من خلال عملهم الصالح لن يشفعوا لأحد إلا بأمر فيه خير له ولامضرة فيه على غيره ، وبهذا يستقيم المجتمع ويتجه نحو الصلاح .

وهناك سادة تتكون سيادتهم من قربهم من الحكام بِغضِّ النظر عن تمثيلهم لمكارم الأخلاق، فهؤلاء غالبا يكون الضابط لشفاعاتهم هو بناء سمعتهم وإشباع غرورهم ، لأن سيادتهم لم تتكون من رصيدهم الأخلاقي الذي تم بناؤه شيئا فشيئا حتى ترسخ في النفوس، وإنما تكون من علاقتهم بالحكام ، وهؤلاء تزول سيادتهم بزوال الحكام الذين رفعوهم بما يقدمون لهم من خدمات ، بخلاف وجهاء الناس الذين تكونت سيادتهم بماهَم من رصيد علمي وأخلاقي فإن سيادتهم راسخة في المجتمع ولاتتغير بتغير الولاة والدول .

ثم يبين عمر ﷺ أن أمور العامة تستقر بأمرين:العدل في الحكم،

والعدل في توزيع المال العام ، وذلك لأن النفوس مهما بلغت من التضحية والصبر فإنه يندر وجود من يصبر على الضيم والهضم ويتنازل عن حقه في المال ، خصوصا مع الحاجة إليه ، فإذا لم يحصل الإنصاف في هذين الأمرين لجأ الناس إلى وجهائهم ليدافعوا عنهم ويستخلصوا لهم حقوقهم ، فإذا لم يُسمع من هؤلاء السادة فإن سمعتهم تضعف أو تزول ، وبذلك تنفصم حلقة الاتصال بين الولاة والعامة أو تضعف ، وبذلك قد تكون المواجهة ، وستكون بغير نظام ولاضوابط ، مما يسبب حدوث الفوضى والقلاقل في المجتمع ، وذلك لغياب وجوه الناس عن الساحة ، وقد يشارك بعضهم في تمثيل هذه المواجهة إذا رأوا ظلما فادحا ، وهضما لحقوق الناس واضحا .

ومن هنا نعرف قيمة هذه الوصية الغالية من أمير المؤمنين عمر الذي حنكته التجارب وصقلته المحن ، بعد استهدائه بنور الله تعالى واعتصامه بشريعته .

مثل من عدالة عمر في توزيع العطاء :

أخرج المؤرخ محمد بن سعد من خبر جهم بن أبي جهم قال: قدم خالد بن عُرْفُطة العُذري على عمر فسأله عمّا وراءه فقال : يا أمير المؤمنين تركتُ من ورائي يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم ، ماوطئ أحدٌ القادسية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة ، وما من مولود يولدُ إلا أُلحق على مائة وجريبين كل شهر ذكرًا كان أو أنثى ، ومايبلغ لنا ذكرٌ إلا أُلحق على خمسمائة أو ستّمائة ، فإذا خرج هذا لأهل بيت منهم من يأكل الطعام ومنهم من لايأكل الطعام ، فما ظنك به ؟ فإنه لينفقه فيما ينبغي وفيما لاينبغي ، قال عمر : فالله المستعان إنما هو حقهم أعطوه وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه ، فلا تحمدني عليه فإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه ولكنّي قد علمتُ أن فيه فضلا ولاينبغي أن أحبسه عنهم ، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العُرَيْب [يعني العرب] ابتاع منه غنمًا فجعلها بسوادهم ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فيها ، فإني ويحك ياخالد بن عرفطة أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة لايُعدُّ العطاء في زمانهم مالاً، فإن

بقي أحدٌ منهم أو أحدٌ من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه فيتكئون عليه ، فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني الله من أمرهم ، قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : من مات غاشًّا لرعيته لم يرح رائحة الجنة [1].

فهذا مثل من النعمة والرخاء في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، فقد وسِع العطاء المسلمين مع كثرتهم حينما تم توزيعه بالعدالة ولم يقتصر على كبراء الناس ووجهائهم.

وقول عمر رضي الله عنه « أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة لا يُعدُّ العطاء في زمانهم مالاً » قد حدث بعده ، فإن العطاء انقطع بعد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه ، ثم عاد في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ثم انقطع بعد موته .

وهذا الشعور من أمير المؤمنين عمر من إلهام الله إياه ﷺ .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٨ – ٢٩٩ .

وفي آخر هذا الخبر توجيه سديد من الفاروق ﷺ نحو الاقتصاد في المعيشة وتوفير جزء من العطاء لشراء مايدخر وينمو حتى ينتفع به الأبناء وأبناؤهم .

وهذا توجيه منه إلى محاوله الاكتفاء ذاتيا ، وذلك بتنمية المواشي ونحوها ، بحث لو انقطع العطاء لا تتأثر حياة أوساط الناس وضعفائهم .

سؤاله عن أحوال أمرائه :

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر الأسود بن يزيد قال : كان الوفد إذا قدموا على عمر ﷺ سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون: نعم، فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فإن قالوا لخصلة منها ، لا ، عزله [1] .

فهذا اهتمام من أمير المؤمنين عمر ﷺ بأحوال الأمراء في عهده ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٦ .

فهو يتحرى ويجتهد في اختيارهم ، ولكنه لايكتفي بذلك بل يسأل عنهم أفراد رعيتهم الذين يفدون إليه ، ويركز على ضرورة اتصافهم بالتواضع والعدل ، ولايتردد في عزلهم إذا أنكر عليهم شيئا من سلوكهم .

اهتمامه بتولية الأكفاء :

مما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر الزهري أن عمر بن الخطاب ﷺ قال : إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه [1] .

فالولاية لابد أن يتوافر فيها عاملان : القوة والأمانة ولم يذكر أمير المؤمنين الأمانة لأن ضرورة تحققها أمر معلوم ، والقوة درجات ، وأمير المؤمنين عمر يخبر بأنه يتحرج من تأمير من هو في درجة أقلَّ في القوة وهو يجد من هو أقوى منه لأن ذلك نقص في تحقيق المسؤولية

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥ .

العليا عن الأمة ، فإن أداء من هو أضعف في القوة أقل من أداء من هو أقوى منه.

بيان شيء من سياسته :

من ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي معشر قال: حدثنا أشياخنا أن عمر قال : إن هذا الأمر لايصلح إلا بالشدة التي لاجبرية فيها وباللين الذي لا وهن فيه [1] .

وهكذا يضع لنا أمير المؤمنين عمر ﷺ قاعدة من قواعد الحكم الناجح ، وهي القوة من غير عنف واللين من غير ضعف ، وقد كان يطبق هذه السياسة في عهده،وكانت من أسباب نجاحه في إدارة أكبر دولة في الأرض أكثر من عشر سنوات بدون حدوث فتن ولا اضطرابات.

مثل من عدالته في الحكم :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الحرمازي قال : كتب عمر بن

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٤٤ – ٣٤٥ .

الخطاب ﷺ إلى فيروز الديلمي [1] : أما بعد فقد بلغني أنه شغلك أكل اللباب بالعسل ، فإذا أتاك كتابي هذا فاقْدَم على بركة الله ، فاغز في سبيل الله ، فقدم فيروز فاستأذن على عمر فأذن له فزاحمه فتى من قريش ، فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي ، فدخل القرشي على عمر مستدمَى ، فقال له عمر: من فعل بك ؟ قال: فيروز وهو على الباب، فأذن لفيروز بالدخول فدخل ، فقال: ماهذا يافيروز؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا كنا حديث عهد بملْك ، وإنك كتبت إلي ولم تكتب إليه ، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن له، فأراد أن يدخل في إذني قبلي ، فكان مني ما أخبرك ، قال عمر ﷺ : القصاصَ، قال فيروز: لابد ، قال : لابد ، فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه، فقال له عمر : على رسلك أيها الفتى ، حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول : قُتل الليلة الأسود

---

(١) هو أحد أبناء فارس الذين أرسلهم كسرى لحكم اليمن ، وقد أسلم وحسن إسلامه وجاهد في سبيل الله تعالى .

العنسي الكذاب ، قتله العبد الصالح فيروز الديلمي ، أفتراك مقتصا منه بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال الفتى : قد عفوت عنه بعد إذ أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا ، فقال فيروز لعمر : أفترى هذا مخرجي مما صنعت إقراري له وعفوه غير مستكره ؟ قال: نعم ، قال فيروز : فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفا من مالي هبة له، قال : عفوت مأجورًا يا أخا قريش وأخذت مالاً [1] .

فهذا مثل من أحكام أمير المؤمنين عمر العادلة في المساواة بين الناس في القصاص ، كبيرهم وصغيرهم أميرهم ومأمورهم ، فهذا الأمير فيروز الديلمي أخذ منه الغضب مأخذه .

وكان يحمل شيئا من رواسب الاعتزاز بالسلطة فأقدم على لطم ذلك الرجل، ولم يكن مقام فيروز الرفيع وجهاده المشكور بالذي يجعل عمر يتغاضى عنه ، لأن ذلك يترتب عليه ظلم المعتدَى عليه ، فحكم بالقصاص ، ولكنه مع ذلك حفظ لذلك الأمير بلاءه في الجهاد

---

(١) تاريخ دمشق ٤٩/ ٢٢ – ٢٣ .

في سبيل الله تعالى الذي ترتب عليه ثناء النبي ﷺ ، فشفع له عند ذلك الفتى حتى عفا عنه .

وموقفٌ يذكر لفيروز حيث أعطى ذلك الرجل تلك العطايا الجزيلة مقابل عفوه عنه .

من مواقف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

كتابه إلى الولاة :

ذكر هذا الكتاب الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه قالوا : وكان أولَ كتاب كتبه عثمان إلى عماله :

أما بعد : فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإنَّ صدر هذه الأمة خُلقوا رعاة ، لم يُخلقوا جباة ، وليوشكنَّ أئمتكم أن يصيروا جباة ولايكونون رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تُثَنُّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدوُّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء [1] .

وفي هذا الكتاب أشار عثمان ﷺ إلى بيان مهمة الولاة الذين يلون أمور المسلمين، حيث بين أنهم رعاة ، ومهمة الرعاة حفظُ

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٤ – ٢٤٥ .

رعاياهم والعنايةُ بهم وبذلُ الجهد في صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ، وليسوا جُباةً لأموالهم ، بل هم مستأمَنون على تلقي موارد الدولة المالية وصرفِها بأمانة وعدالة .

ونبه على ماسيكون عند تغير الولاة من رعاة إلى جباة ، بأن ذلك سببٌ في تقلص مكارم الأخلاق التي مثَّل لها بالحياء والأمانة والوفاء ، وذلك أنَّ بين الراعي والرعية خيطًا ساميًا من العلاقات المتينة ، يؤكده ويثبِّتُه اتفاق الجميع على هدف واحد ، وهو ابتغاء وجه الله تعالى ، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لرعيته من رعاية وعدالة ، وأفرادُ الرعية يسعون لهذا الهدف بما يقدمونه لإمامهم من طاعة وولاء وأمانة ووفاء ، ويبقى خُلُق الحياء الذي أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع فيمنعُهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع في الحرج .

ثم يوصي عثمان ولاته بالعدل في الرعية ، وذلك بأخذ ماعليهم من الحقوق وبذل مالهم من ذلك ، ويشير إلى نقطة مهمة وهي أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء .

كتابه إلى الجُبَاة :

قال الإمام ابن جرير : قالوا : وكان أولَ كتاب كتبه إلى عمال الخراج : أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانةَ الأمانةَ ، قوموا عليها، ولاتكونوا أولَ من يُسلَبُها ، فتكونوا شركاء مَنْ بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاءَ الوفاءَ،لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم [1].

ففي هذا الكتاب تذكير بالله تعالى لتكون رقابته هي المهيمنةَ على النفوس ، فيلتزمَ من ولاهم الله أمور أموال الأمة بالحق ويستقيموا عليه،فلا يأخذوا الأموال من مصادرها إلا بطريق حلال،وإذا أخذوها قاموا بحفظها بأمانة حتى يؤدوها في وجوهها المشروعة .

ثم يوصيهم بلزوم الأمانة ، ويذكِّرهم بأنهم إن سُلِبوها فإنهم يتحملون مغبة فقدها في الدنيا والآخرة ، ويشاركون في المأثم من تأسي بهم في ذلك .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥ .

ثم يوصيهم بالوفاء بأداء حقوق اليتامى والمعاهدين ، ويذكِّرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معَرَّضون لنقمة الله تعالى ، لأنه خصم لمن ظلَم هؤلاء المستضعفين .

وفي هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين .

ومن أمثلة عدله مع أفراد رعيته حتى المماليك منهم ما ذكره المحب الطبري من خبر أبي الفرات قال: كان لعثمان ﷺ عبد فقال له: إني كنت عركت أذنك فاقتص مني ،فأخذ بأذنه ثم قال عثمان ﷺ : أشدد ، ياحبذا قصاص الدنيا لاقصاص الآخرة [1] .

فهذه صورة حية من تذكُّر مشاهد الآخرة ، وقد كان هذا التذكر صَمَّام أمان ووازعا قويا للصحابة رضي الله عنهم والصالحين من بعدهم،حيث دفعهم ذلك إلى التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر إسماعيل بن أبي

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢/ ١١١ .

خالد وذلك في حديثه عن الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان ﷺ وقد ذكر بعض الدعاوى التي ادعاها عليه الثوار وجوابه عنها إلى أن ذكر قول عثمان « وأما قولهم : تنَاولَ أصحاب النبي ﷺ إنما أنا بشر أغضب وأرضى، فمن ادعى قِبَلي حقا أو مظلمة فها أنا ، فإن شاء قَوَدٌ ، وإن شاء عفو، وإن شاء أُرضي» قال : فرضي الناس واصطلحوا [1] .

فهذا مثل عال في العدل حيث قبل أمير المؤمنين عثمان ﷺ أن يُمكِّن كل من ادعى عليه في مظلمة أو حق من الأخذ بحقه منه ولو في القصاص ، وقد كان هذا التسامح والعدل سببا في قناعة الثائرين وإصلاح ذات البين ، لولا أن أولئك الثائرين كان فيهم أصحاب هوى فاسد فكان منهم ماكان بعد ذلك من العودة إلى المدينة وحصار عثمان ﷺ وقتله.

---

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٤٩ .

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

أمثلة من عدله :

من أمثلة عدل أمير المؤمنين علي ﷺ في الحكم ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر ناجية القرشي عن أبيه قال : كنا قيامًا على باب القصر إذ خرج عليٌّ علينا فلما رأيناه تنحينا عن وجهه هيبة له ، فلما جاز صرنا خلفه ، فبينما هو كذلك إذ نادى رجل : ياغوثًا بالله ! فإذا رجلان يقتتلان ، فلكز صدر هذا وصدر هذا، ثم قال لهما : تنحيا، فقال أحدهما : يا أمير المؤمنين إن هذا اشترى مني شاة وقد شرطت عليه أن لايعطيني مغموزا ولامحذَّقا – يعني الدارهم المعيبة- فأعطاني درهمًا مغموزًا فرددته عليه فلطمني ، فقال للآخر : ماتقول ؟ قال: صدق يا أمير المؤمنين قال: فأعطه شرطه ، ثم قال للأَطم : اجلس ، وقال: للملطوم ، اقتص، قال: أوعفوٌ ياأمير المؤمنين ، قال: ذلك إليك ، قال فلما جاز الرجل قال علي : يامعشر المسلمين خذوه ، قال: فأخذوه فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتَّاب ، ثم ضربه خمس عشرة دِرَّة ، ثم قال : هذا نكال لما انتهكت من حرمته ، وفي

رواية أنه قال : هذا حق السلطان [1] .

هذا وإن هذا الخبر ليعدُّ مثلا عاليًا للتواضع حيث يخرج أمير المؤمنين من بيته إلى السوق يتفقد أحوال الناس ، ويقوم بنفسه في حل مشكلاتهم ، وهو نوع من السلوك العالي الذي يبرز وجود الولاة في واقع حياة الرعية سواء قام بذلك الوالي الأكبر أم من دونه ، ولايلزم تكرر هذا الوجود كل يوم ، إذ يكفي شعور الناس بأن الولاة معهم في مشكلاتهم ليطمئن صاحب الحق على بقاء حقه في حوزته ، وعودته إليه فيما لو اعتُدي عليه ، وليرتدع من تسوِّل له نفسه الاعتداء على حقوق الناس ، وقبل ذلك وأهم منه أن يرتدع كل من يحدِّث نفسه بالاعتداء على حق الله تعالى .

وهذا الوجود المتلاحم بين الوالي والرعية يظهر بصور متعددة تتناسب مع أنماط الحياة في كل عصر، فلا يقولنَّ قائل بأن ماقام به أمير المؤمنين علي ﷺ يعدُّ سائغًا في عصره ولكنه بعيد التَّصور في هذا

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٥٧ .

العصر ، فإنه لاعبرة بالأشكال والصور ، وإنما العبرة بالأهداف والمقاصد التي تتحقق بها الحياة السعيدة للمسلمين ، وذلك برعاية حق الله أولاً ثم حقوق الناس العامة والخاصة .

وفيما قام به أمير المؤمنين علي ﷺ من إجراء العقوبة علي المعتدي مع تنازل صاحب الحق دلالة على إدراكه ﷺ لمقاصد الإسلام من حفظ الأمن وإشاعة السلام بين المؤمنين ، وذلك لأنه سيرتدع من تميل نفسه إلى الاعتداء على غيره إذا عرف بأن العقوبة ستجري عليه ولو عفا عنه خصمه .

ومن أمثلة عدله ﷺ جلوسه مع يهودي عند القاضي شريح ، وقد أخرج خبره في ذلك الحافظ أبو نعيم من خبر يزيد التيمي قال : وجد علي بن أبي طالب درعا له عند يهودي التقطها فعرفها ، فقال : درعي سقطت عن جمل لي أورق . فقال اليهودي : درعي وفي يدي ، ثم قال له اليهودي : بيني وبينك قاضي المسلمين ، فأتوا شريحًا فلما رأى عليا قد أقبل تحرف عن موضعه وجلس علي فيه، ثم قال علي : لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس، ولكني سمعت

رسول الله ﷺ يقول : «لاتساووهم في المجلس وألجؤوهم إلى أضيق الطرق فإن سبوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم» . ثم قال شريح : ماتشاء يا أمير المؤمنين ؟ قال درعي سقطت عن جمل لي أورق والتقطها هذا اليهودي . فقال شريح ماتقول يايهودي ؟ قال : درعي وفي يدي . فقال شريح : صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لابد من شاهدين ، فدعى قنبرا مولاه والحسن بن علي وشهدا أنها لدرعه . فقال شريح : أما شهادة مولاك فقد أجزناها ، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها فقال علي : ثكلتك أمك ، ما سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ».

قال : اللهم نعم ! قال : أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة ؟ والله لأوجهنك إلى بانقيا تقضي بين أهلها أربعين يوما ، ثم قال لليهودي : خذ الدرع . فقال اليهودي : أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى عليه ورضي ! صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك فالتقطتها ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن

محمدًا رسول الله ، فقال علي : الدرع لك وهذا الفرس لك وفرض له في تسعمائة ، ثم لم يزل معه حتى قتل يوم صفين »[1] .

وذكره الحافظ ابن كثير من خبر عامر الشعبي بنحو ذلك[2] .

فهذا المشهد الرائع قد أثار نوازع الخير لدى ذلك اليهودي فأدرك بتأمله السريع أن هذا حكم لايصدر إلا من ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وأن الإسلام هو الذي حمل أمير المؤمنين على الجلوس معه أمام القاضي ، ثم مطالبة القاضي أمير المؤمنين بالبينة ، فأعلن إسلامه .

وهكذا كان تطبيق الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالى أقوى دعوة إلى فهم عظمة هذا الدين ثم دخول الناس فيه ،

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٣٩ – ١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٥ ، وقد ذكر بعض العلماء أن هذا الخبر غير مقبول وتكلم على ضعف سنده ، وهذا الحكم إنما ينطبق على السنة النبوية أما الأخبار التاريخية فلا تطبق عليها معايير النقد عند المحدثين على قول جمهور العلماء ، وكون الحافظ ابن كثير أورده وسكت عنه يعد توثيقا له .

وخصوصا إذا كان تطبيقه بهذا المستوى العالي من أعلى مسؤول في دولة الإسلام .

ولقد ضرب علي ﷺ من نفسه مثلا عاليا للقدوة الحسنة حيث سيسارع إلى الاقتداء به في هذا الإيمان القوي والأخلاق الإسلامية كلٌّ من الولاة والعامة .

ولقد نبه ﷺ ببيان سنة الإسلام في معاملة غير المسلمين إلى أن جلوسه بجوار القاضي وعدم جلوسه مع خصمه اليهودي إنما هو من باب رفعة المسلمين وإعزاز الإسلام ، الأمر الذي دعا إليه رسول الله ﷺ ،وليس من باب التميز على خصمه الذي هو مدخل إلى تحريض القاضي على الجور ، إذ لو كان خصمه مسلما لجلس معه ولم يتميز عليه.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عمرو بن سلمة : أنه قدم من أصبهان على أمير المؤمنين علي ﷺ بِزِقاقٍ من عسل وسمن فأمره علي أن يضعها في الرحبة حتى يقسمها بين المسلمين ،

وأن أم كلثوم بنت علي بعثت إليه [1] :أرسل إلينا من هذا العسل الذي معك، فبعث إليها بزقَّين من عسل وسمن ، فلما خرج علي إلى الصلاة عدَّها فوجدها تنقص زقين، فدعاه فسأله عنهما ، فقال: يا أمير المؤمنين لاتسألني عنهما فإنا نأتي بزقَّين مكانهما، قال: عزمت عليك لتخبرني ماقصتهما ، فقال: بعثت إلي أم كلثوم فأرسلت بهما إليها ، قال:أمرتك أن تقسم بين المسلمين فيئهم ؟ ثم بعث إلى أم كلثوم :أن رُدِّي الزقَّين،فأُتي بهما مع مانقص منهما، فبعث إلى التجار فقدروهما مملوءين وناقصين فوجدوا فيهما نُقصان ثلاثة دراهم وشيء، فأرسل إليها: أن أرسلي إلينا بالدراهم،ثم أمر بالزِّقاق فقُسمت بين المسلمين[2] .

فهذا الخبر مثل على حرص أمير المؤمنين علي ﷺ على أموال المسلمين والدقة في الإحصاء حيث عرف بسرعة عدد تلك الزِّقاق ولم يعتمد في ذلك على الأمير الذي قدم بها، ثم قام بعدِّها مرة ثانية فتبين

---

(١) يعني إلى عمرو بن سلمة .

(٢) تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٧٩ بتصرف يسير .

نقصها ، ثم لما علم بذلك ألحَّ في معرفة من الذي أخذها ، ولما تبين له أن الذي طلبها هي ابنته أمرها برد ذلك وقيمة ماأخذت منه ، وهذا مثل على كمال العدل وعدم محاباة الأقارب على حساب أفراد الأمة .

إنصافه الخلفاء السابقين :

من أخباره ﷺ في العدل مع الآخرين ماروي عنه من القول بالحق في شأن الخلفاء الراشدين قبله والثناء عليهم ومن ذلك ما أخرجه الإمام الذهبي بإسناده من خبر الإمام الحسن البصري قال: لما قدم عليّ البصرة قام إليه ابن الكوَّاء ، وقيس بن عبّاد فقالا له : ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرْتَ فيه ، تتولّى على الأمة ، تضربُ بعضهم ببعض ، أعهدٌ من رسول الله ﷺ عهدهُ إليك ، فحدِّثْنا فأنت الموثوق المأمون على ماسمعت ؟ فقال : أما أن يكون عندي عهدٌ من النبي ﷺ في ذلك فلا ، والله إن كنتُ أوّل من صدَّق به ، فلا أكون أول من كذبَ عليه، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهدٌ في ذلك ، ماتركت

أخا بني تَيْم بن مُرّة [1]،وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتُهُما بيدي ، ولو لم أجد إلا بُرْدي هذا ، ولكن رسول الله ﷺ لم يُقْتل قتلا، ولم يمتْ فجأة ، مكث في مرضه أيامًا وليالي ، يأتيه المؤذِّن فيؤْذِنه بالصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس، وهو يرى مكاني ، ثم يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصّلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس ، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأةٌ من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال: «أنتُنّ صواحب يوسف، مُرُوا أبا بكر يُصلِّ بالناس» .

فلما قبض الله نبيَّه ، نظرنا في أمورنا ، فاخترنا لدُنيانا من رضِيه نبيُّ الله لديننا . وكانت الصلاة أصل الإسلام ، وهي أعظم الأمر ، وقوام الدين . فبايَعْنا أبا بكر ، وكان لذلك أهلا، لم يختلف عليه منّا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعض ، ولم نقطع منه البراءة ، فأدّيتُ إلى أبي بكر حقَّه، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جنوده ، وكنت آخذُ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود

---

(١) يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

بسَوْطي ، فلما قُبِضَ ، ولاّها عمر ، فأخذ بسُنَّة صاحبه، ومايعرف من أمره، فبايعْنا عمر ، لم يختلف عليه منّا اثنان ، ولم يشهد بعضُنا على بعضٍ ، ولم نقطع البراءة منه ، فأدَّيْتُ إلى عمر حقَّه ، وعرفت طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخُذُ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسَوطي .

فلمّا قُبض تذكَّرت في نفسي قرابتي وسابقتي وسالفتي وفضْلي ، وأنا أظنّ أن لايعْدل بي ، ولكنْ خشي أن لايعمل الخليفة بعده ذَنْبًا إلا لحِقَه في قبره ، فأخرج منها نفْسه وولده ، ولو كانت محاباةً منه لآثر بها ولَدَه فبريء منها إلى رهطٍ من قريش ستّة ، أنا أحدُهُمْ .

فلمّا اجتمع الرَّهْط تذكّرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي ، وأنا أظنّ أنّ لايعْدلوا بي، فأخذ عبد الرحمن مواثقنا على أن نسمع ونُطيع لمن ولاّه الله أمرنا ، ثمّ أخذ بيد ابن عفان فضرب بيده على يده، فنظرت في أمري ، فإذا طاعتي قد سبقت بيْعتي ، وإذا ميثاقي قد أُخذ لغيري ، فبايعنا عثمان ، فأدَّيت له حقّه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب

بين بيديه بسَوْطي .

فلمّا أصيبَ نظرت في أمري ، فإذا الخليفتان اللّذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصّلاة قد مضيا ، وهذا الذي قد أُخذ له الميثاق ، قد أصيب فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين [1] .

فهذا مثل من أمثلة العدل وقول الحق ولو كان لغير صالح النفس من الناحية الدنيوية، وشاهد من شواهد الأمانة في نقل سنة رسول الله ﷺ ، فقد كان بإمكان علي رضي الله عنه أن يقول شيئًا مما يثبت أمره ويُعدُّ قوة على منافسيه ، ولكنه يعلم أن ذلك من خيانة الأمانة الدينية، وماكان ليقدم مجد الدنيا الزائل على رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

إن هذا الأمر لايتصور حدوثه من صغار الصحابة رضي الله عنهم فضلا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهود له بالجنة والسابق بالخيرات .

---

(١) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين / ٦٤٠ – ٦٤٢ .

ومن أمثلة عدله ﷺ في الحكم على الآخرين ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سويد بن غفلة قال قال علي : يا أيها الناس إياكم والغلو في عثمان ، تقولون حرق المصاحف، والله ماحرقها إلا عن ملأٍ من أصحاب محمد ﷺ ، ولو وليت مثل ماولي لفعلت مثل الذي فعل .

وفي رواية أخرى من خبر سويد بن غفلة قال قال علي : اختلف الناس في القرآن على عهد عثمان ، قال: فجعل الرجل يقول للرجل : قراءتي خير من قراءتك ، قال: فبلغ ذلك عثمان فجمَعنا أصحابَ رسول الله ﷺ فقال : إن الناس اختلفوا اليوم في القراءة وأنتم بين ظهرانيهم ، فقد رأيت أن أجمعهم على قراءة واحدة ، قال: فأَجمعَ رأينا مع رأيه على ذلك،قال: وقال علي:لو وليت مثل الذي ولي لصنعت مثل الذي صنع[1] .

فهذا مثل من أخبار عدل علي ﷺ في الحكم على الناس، فعلى الرغم مما جرى بينه وبين عثمان ﷺ من الخلاف في آخر خلافته فإنه

---

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٤٥ – ٢٤٦ .

يثني على عمله في جمع المسلمين على مصحف واحد ، ويُبَرِّئه مما اتهمه به المغرضون في حرق المصاحف .

وفي هذا الخبر إشارة إلى الغلو في النقد الذي ابتدعه الخوارج الذين خرجوا على عثمان ﷺ، حيث حكموا عليه بأنه حرق المصاحف وتجاهلوا الأهداف السامية التي من أجلها ألغى المصاحف المتعددة وحصر الناس على مصحف واحد ، فحولوا المحاسن إلى مساوئ والمناقب إلى مثالب ، وهكذا النفوس إذا توجهت إلى النقد من غير أن تنضبط بموازين الإسلام فإن أصحابها يتجهون إلى الغلو وتغيير الحقائق والحكم بالجور على من توجهوا لنقده .

ولقد أثنى عليٌّ على عثمان كثيرًا ودافع عنه ، فمن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر كليب الجرمي قال: كنا مع علي فالتفت إلى محمد بن حاطب فدعاه فتحول إليه فقال: إن قومي إذا أتيتهم يقولون: ماقول صاحبك في عثمان ؟ فسبَّه الذين حوله [يعني سبوا عثمان] قال: فرأيت جبين علي يرشح كراهية لما يجيؤون به ، فقال محمد ابن حاطب : كفُّوا ، فو الله ما إياكم أسأل ، فقال علي:أَخبرهم أن قولي

في عثمان أحسن القول ،إن عثمان كان من الذين ﴿ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة :٩٣] .

وكذلك ما أخرجه من خبر عاصم بن أبي النجود قال:دخلتْ إحدى بنات عثمان على عليّ فقال: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] .

وكذلك ما أخرجه من خبر يوسف بن سعد مولى عثمان بن مظعون قال: قال لي ابن حاطب: لو شهدت اليوم شهدت عجبا ، قال: قلت: ماهو ؟ قال: فإن عليا وعمارا ومالكا وصعصعة اجتمعوا في دار نافع ، فذكروا عثمان فقال علي : يا أبا اليقظان لقد سبق في عثمان من رسول الله ﷺ سوابق لايعذبه الله بعدها أبدا [1] .

فهذه أمثلة من الحكم بالعدل على الآخرين ، وذلك بعدم النظر

---

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٤٦٦ – ٤٦٧ – ٤٦٥ – ٤٦٧ .

إلى الأخطاء وحدها وعدم التركيز عليها مع نسيان المحاسن ، وإنما المنهج الصحيح أن يُنظر إلى محاسن الإنسان فإذا كانت كثيرة غالبة على أعماله فإن الأخطاء لاتعدُّ شيئا بجانبها ، لأن الله تعالى يمحو السيئات بالحسنات ، ولقد كان بعض الذين صحبوا عليا ﷺ لايفهمون هذا المنهج أو كانوا غافلين عن تذكُّره ، فبيَّنه لهم علي ﷺ وأوضح لهم أن الاهتمام في الحكم على الرجل يجب أن يكون مُنصبًّا على الكثير الغالب من أعماله ، ولقد كان هذا المنهج غريبا عليهم حتى إنه أثار عجبهم ، لأن تفكيرهم كان محصورا في تتبع الأخطاء وإبرازها والحكم على صاحبها من خلالها .

وقولـه « لقد سبق في عثمان من رسول الله ﷺ سوابق لايعذبه الله بعدها أبدا » يشير إلى أعماله العظيمة في الإنفاق في سبيل الله تعالى ، حيث أنفق على جيش العسرة في تبوك أموالاً لم يقاربه فيها أحد حتى أصبح يطلق عليه « مجهز جيش العسرة» وحتى قال فيه رسول الله ﷺ «ماضرَّ عثمان مافعل بعد اليوم» .

وهذه مواقف تُذكر لأمير المؤمنين علي ﷺ حيث أوضح منهج

الإسلام في الحكم على المخالفين ، وعرف لأهل الفضل فضلهم وصحح المفاهيم الخاطئة حول هذا الأمر .

من مواقف عمران بن حصين رضي الله عنه

أخرج الحاكم من خبر إبراهيم بن عطاء عن أبيه : أن زيادًا أو ابن زياد بعث عمران بن حصين ساعيا [أي يجمع الزكاة] فجاء ولم يرجع معه بدرهم ، فقال له : أين المال : قال : وللمال أرسلتني؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها في الموضع الذي كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي [1] .

فهذا مثل من الحكم بالحق والوفاء بالمسؤولية على الوجه المشروع ، والعدل في إيصال الحقوق إلى مستحقيها ، فالزكاة تؤخذ من أغنياء القوم ثم ترد على فقرائهم ، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ ، ولكن بعض الولاة فهموا أنها جباية تُحمل إلى بيت مال المسلمين ، ومنهم والي العراق المذكور، فبين له عمران بن حصين رضي الله عنه أنه بقيامه بتقسيم الزكاة على الفقراء إنما قام بتطبيق سنة رسول الله ﷺ، وهذا هو

---

(١) المستدرك ٣/ ٤٧١ .

مقتضى العدالة والذي تحقق به مقاصد الزكاة ، حيث إن الفقراء ينظرون إلى أموال الأغنياء في بلادهم وينتظرون الحق الشرعي منها الذي ضمنه لهم الإسلام عن طريق الزكاة ، فإذا حُملت الزكاة إلى الولاة فربما لايصل إلى أولئك الفقراء منها شيء ، وذلك فيما إذا كان الوالي لا يفقه أحكام الشريعة أولا يريد تطبيقها ، أما إذا كان الوالي عالما بأحكام الشريعة مطبقا لها فإنه ربما كان من مصلحة المسلمين حمل بعضها إليه بعد سد حاجة فقراء البلد ، وذلك ليصرفها في مصارفها الشرعية ، ومن ذلك تجهيز المجاهدين كما فعل الصديق أبو بكر رضي الله عنه .

من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي قبيل قال : كان معاوية يبعث رجلا يقال له أبو الجيش في كل يوم ، فيدور على المجالس يسأل : هل وُلد لأحد مولود ؟ أو قدم أحد من الوفود؟ فإذا أُخبر بذلك أُثبت في الديوان ليجري عليه الرزق [1] .

فهذا مثل مما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية ﷺ من التحري الدقيق في القيام بالمسؤولية التي وفقه الله إليها ، فهو لاينتظر من أبناء الأمة أن يغدوا إليه أو يراسلوه ليثبت لهم العطاء، بل كان يكلف من يسأل كل يوم عن المواليد والوفود ، ولقد كان ذلك من أسباب سعادة الناس في عهده وتمتعهم بنعمتي الرخاء والأمن .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٤ .

من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي حازم قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: انظروا رجلين من أفضل من تجدون ، فجيء برجلين ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قُبالَه فقال لهما: إنه مجلس شِرَة وفتنة فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي ، فإذا رأيتما مني شيئًا لايوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل [1] .

فهذا مثل من تصميمه على الحكم بالحق ، وهو لكونه يعرف ضعف بني آدم ، وأن الإنسان يسير في هذه الحياة بين أعداء لدودين : نفسه الأمارة بالسوء التي تزين له اتباع الهوى ، والشيطان الرجيم الذي يوسوس له ويخادعه ويقلل في عينه مسالك الانحراف ، ويضخم في عينه مهابة الناس، وشياطين الإنس الذين مايزالون يفتلون له في الذروة والغارب ليسقطوا على مواقع الضعف فيه فينفذوا منها إلى السيطرة عليه وتسخيره لباطلهم ، فهو لكونه يعرف

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ – ١٤٧ .

ذلك كله لم يعتمد على مايرى من قوة إيمانه وعزمه الأكيد على تنفيذ الحق ودحر الباطل ، بل جعل على نفسه رقباء من أهل التقوى بعيدا عن ساحة المعركة التي يخوضها هو ليدرك ماقد يفوته أو يغلب عليه من مناحي الانحراف عن الطريق المستقيم .

ماقام به من رد المظالم :

قال ابن عبد الحكم – في بيان ماقام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة –: واحتجب عن الناس ثلاثا لايدخل عليه أحد ، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون مايخرج به عليهم منه ، فجلس للناس بعد ثلاث وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها ، فرد المظالم وأحيا الكتاب والسنة وسار بالعدل ، ورفض الدنيا وزهد فيها ، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل فرحمه الله [1] .

وهكذا رسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سياسته التي

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٠ .

سيسير عليها، حيث أحصى المظالم فردها إلى أصحابها ، وكان قويا في فرض الحق ، فلم يخش المعارضين مع كثرتهم وتحزبهم، ولم يخش أحدًا من الظلمة ، لأنه كان يخشى الله تعالى وحده ، حيث أصبح قلبه مملوءًا بالإيمان بالله جل وعلا وحبه وخشيته ، ولم يكن لمراكز القوى المحيطة به أي أثر في صده عن تنفيذ الحق ، لأن قلبه قد تجرد للإيمان بالله تعالى وحده فلم يستطع الشيطان أن يغريه بالدنيا ولا أن يخيفه بأصحاب النفوذ ولا من وراءهم من طلاب الدنيا .

بدؤه بنفسه وأهل بيته :

من عدالته أنه بدأ بنفسه وأهل بيته ، وفي ذلك يقول أبو بكر بن أبي سبرة : لما رَدَّ عمر بن عبد العزيز المظالم قال : إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي ، فنظر إلى مافي يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم فقال : هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب ، فخرج منه [1] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤١ .

ومن ذلك ماجاء في قول عبد المجيد بن سهيل : رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ماكان بأيديهم من المظالم ثم فعل بالناس بعد [1].

ولقد سهَّل على الناس وصول حقوقهم إليهم ، وفي ذلك يقول أبو الزناد : وكان عمر يرد المظالم على أهلها بغير البينة القاطعة ، كان يكتفي بأيسر من ذلك ، إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة [2].

من كتاباته في رد المظالم :

من كتاباته إلى الولاة في رد المظالم مارواه عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد المظالم إلى أهلها ، فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق، وحتى

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢ .

حمل إلينا عمر المال من الشام [1].

وكذلك ماجاء في خبر أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة قال: كتب إلي عمر بن عبد العزيز : أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم .

وجاء في هذا الكتاب – كما ذكر موسى بن عبيدة – وإياك والجلوس في بيتك ، اخرج للناس فآسِ بينهم في المجلس والمنظر ، ولايكن أحد من الناس آثر عندك من أحد ، ولاتقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين ، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء،بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم،وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه [2].

وهذا من كمال عدله ومساواته بين المسلمين ، وذلك يدل على

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢–٣٤٣ .

قوة إيمانه ورجاحة عقله.

ولقد كان رد المظالم عملا كبيرًا استغرق خلافة عمر بن عبد العزيز كلها كما جاء في خبر سليمان بن موسى قال : مازال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات [1].

حرصه على الإسراع في رد المظالم :

لقد كان حريصا على الإسراع برد المظالم إبراء للذمة وخوفا من حلول الأجل قبل إكمال ذلك ، ومن أخباره في ذلك ما أخرجه محمد ابن سعد من خبر أيوب بن موسى قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة عامله على اليمن : أما بعد فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولاتعرف بُعْدَ مسافة مابيني وبينك ، ولاتعرف أحداث الموت ، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت : أرددها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على

---

(١) المرجع السابق ٥/ ٣٤١ .

المسلمين مظالمهم ولاتراجعني [1] .

وهكذا بين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لواليه على اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي أهمية الإسراع في رد المظالم وأن لايضيع الوقت بالكتابات الاستفسارية عن أمور واضحة، وفي هذا لفت نظر إلى أن من أسباب نجاح الوالي أن يتصرف باجتهاده في الأمور التي لاغموض فيها ولالبس ، من باب كسب الوقت والسرعة في الإصلاح .

مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال : لما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ماكان يجري عليهم من أرزاق الخاصة وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم تكلم في ذلك عنبسة بن سعيد فقال : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ، قال: لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد ، فلا يمنعه

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨١ .

من أخذه حقه إلا بُعْد مكانه ،والله إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنـزلت بهم بائقة من عذاب الله [1] .

وهذا مثل من كمال عدله حيث تنـزه عن محاباة عشيرته ، وفي إخباره عن نزول عذاب الله تعالى تصوير لسنة من سنن الله جل وعلا، وذلك أنه كلما تمحضت الأرض للشر كانت مهددة بنـزول عذاب من عند الله تعالى ، ولكنه سبحانه يدرأ عنها العذاب استجابة لدعاء الصالحين ، ولذلك فإن المؤمن الحق يستأنس بكثرة الصالحين ، ويستوحش من كثرة الفاسقين والمفسدين في الأرض .

وذكر الحافظ أبو نعيم من خبر عمر بن مقدم قال : قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم: إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر ، قال فاستأذنت له فقال : أدخله ، فأدخلته على عمر فقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين علام ترد قطيعتي ؟ قال : معاذ الله أن أرد قطيعة صحت

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٥ .

في الإسلام . قال فهذا كتابي وأخرج كتابا من كمه ، فقرأه عمر فقال : لمن كانت هذه الأرض؟ قال للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو أولى بماله ، قال : فإنها من بيت مال المسلمين ، قال: فالمسلمون أولى بها قال : يا أمير المؤمنين رد علي كتابي ، قال: لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل ، قال: فبكى ابن سليمان ، قال مزاحم : فقلت : يا أمير المؤمنين ابن سليمان اللائط الحب [1] اللازق بالقلب تصنع به هذا ؟ قال : ويحك يامزاحم إنها نفسي أحاول عنها، وإني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي [2] .

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تجاذب نفسي بين مقام العدل بعدم تخصيص أفراد عشيرته بشيء دون أفراد الأمة وبين مقام الرحمة بمن يحبهم من أفراد عشيرته ممن يشعرون بأنهم قد

---

(١) أي الشديد الحب من لاط يلوط لوطا .

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ – ٢٨٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /٩٨ .

تضرروا بحكمه ، ولكن ليس هناك مجال للموازنة بين الأمرين لوضوح وجوب العدل وعدم الالتفات إلى عاطفة النفس لأن عاقبة ترك الواجب خضوعا للعاطفة هي الهلاك في الآخرة، ولايمكن عقد مقارنة بين الدنيا والآخرة .

إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : لما دفن عمر سليمان صعد إلى المنبر فقال « إني قد خلعت مافي أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك » فنـزل فدخل فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحُملتْ وأمر ببيعها وإدخالها – أو قال إدخال ثمنها – بيت المال ، ثم ذهب يتبوأ مقيلا ، فقال ابنه عبد الملك تقيل ولاترد المظالم ؟ قال أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فخرج ولم يَقِلْ ، فأمر مناديه أن ينادي : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس

واللحية ، فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال وماذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي – والعباس جالس – فقال له : ياعباس ماتقول؟ قال أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلا ، فقال ماتقول ياذمي ؟ قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، اردد عليه ياعباس ضيعته ، فرد عليه ، فجعل لايدع شيئا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة [1] .

فهذا الخبر والذي قبله مثلان من صرامة عمر بن عبد العزيز وحزمه في تطبيق الأحكام الشرعية ، فهو لين رحيم فيما يتعلق بنفسه ولكنه قوي شديد فيما يتعلق بأحكام الله تعالى .

وفي هذين الخبرين مثل من انقلاب المفاهيم عند أهل الدنيا ، فالحق عند هذين الرجلين المعتديين هو ماقرره أبواهما الوليد وسليمان

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٨٦ .

وإن كانا ظالمين معتديين من غير نظر فيما ينجيهما من المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة ، وما أعظم خسارة هؤلاء الذين يعتدون على أموال الناس ولايردعهم من ذلك إلا قوة السلطان !! فإنهم قد خسروا دنياهم لانتزاعها منهم بالقوة وخسروا آخرتهم لأنهم ليس لهم نية في إنصاف المظلومين ورد حقوقهم إليهم .

إنصافه أهل سمرقند :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر طفيل بن مرداس قال: كتب عمر إلى سليمان بن أبي السَّريّ : أن اعمل خانات في بلادك فمَنْ مرَّ بك من المسلمين فاقْرُوهم يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقْرُوه يومين وليلتين ، فإن كان منقطعا به فقوُّوه بما يصل به إلى بلده.

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأْذَن لنا فليَفِدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أُعطيناه ، فإنَّ بنا إلى ذلك حاجة ، فأَذِن لهم ، فوجهوا منهم قوما فقدموا على

عمر ، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري : إن أهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلمًا أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأَجلسْ لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخْرجْهم [1] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة .

قال : فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي الناجي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرًا عنوة ، فقال أهل السُّغد [2] : بل نرضى بما كان ولانجدِّد حربا ، وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمِنونا وأمنّاهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولاندري لمن يكون الظفَر ، وإن لم يكن لنا كنا اجتلبنا

---

(١) يعني المسلمين الغزاة .

(٢) السغد قوم يسكنون بعض بلاد ماوراء النهر .

عداوة في المنازعة ، فتركوا الامر على ماكان ورضوا ولم ينازعوا [1] .

فهذا مثل من عدل عمر بن عبد العزيز واهتمامه بأمور الأمة ، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور :

أولها : أن الناس يُقبلون على التظلُّم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجدّ وسيُنظر فيها بعين العدل ، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ماهم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان ، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم .

ثانيها : أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي ، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس ، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين ، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد ، والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم ، ولكنه قد نذر نفسه

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٧ – ٥٦٨ .

لرفع المظالم وإقرار العدالة ، وذلك لايكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه .

ثالثها : أن أولئك القوم قد أُسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين ، سواء حكم لهم أو عليهم ، وأن مصلحتهم في بقائهم على ماهم عليه ، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي .

جوابه لعنبسة حينما سأله :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : قال عمر بن عبد العزيز لعنبسة بن سعيد – وسأله حاجة- ياعنبسة إن كان مالك الذي أصبح عندك حلالا فهو كافيك ، وإن كان حرامًا فلا تزيدنَّ إليه حرامًا ، ألا تخبرني أَمحتاج أنت ؟ قال : لا ، قال : أَفعليك دين ؟ قال: لا ، قال : أَتأْمرني أن أَعْمدَ إلى مال الله فأعطيَكَهُ من غير حاجة بك إليه وأَدعَ فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارمًا أديت غُرمك، أو محتاجًا أمرت لك بما يصلحك ، فعليك بمالك الذي عندك فَكُلْه واتَّق الله ، وانظر أولاً

من أين جمعته ، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هَوادةٌ ولامراجعة [1] .

في هذا الحوار الذي جرى بين أمير المؤمنين عمر بن العزيز وعنبسة بن سعيد يتبين لنا دقة عمر في التحري في اكتساب المال ، بحيث لايكون من طريق حرام أو مشتبه فيه .

كما يظهر لنا مثل من عدالته في توزيع المال العام ، حيث بين أن عنبسة ليس بأحق بهذا المال من فقراء المسلمين .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة وضح فيها عمر حرمة مال المسلمين العام ، وأن الأخذ منه بغير حق كالأخذ من أموال الناس الخاصة ، وقد كان كثير من الناس يعتقدون بأن ولاة الأمر لهم حرية التصرف بأموال المسلمين كما يؤدي إليه نظرهم ، وأن ذلك يصير حلالا لمن أُعطي له بمجرد صرفه من ولي الأمر ، فبين لهم عمر بأقوال وأفعال كثيرة أن هذا المال لايجوز صرفه إلا لمستحقيه ، وأنه إذا صُرف في غير

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ – ١٥٥ .

وجهه فإنه يجب على من صُرف له أن يرده لبيت مال المسلمين .

إنصافه رجلا اشتكى من أحد أقاربه :

قال ابن عبد الحكم رحمه الله تعالى : وأتاه رجل فقال : يا أمير المؤمنين مَظْلمةٌ دخلتْ عليّ، قال عمر : ومن يَكُ ؟ قال: فلا والله ما استطاع أن يقول : فلان ، لبعض أهله ، مرتين أو ثلاثا، فقال: فلان ابن فلان عمد إلى مال لي بكذا وكذا فأخذه فقال : ياغلام ائتني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله ، إن فلانا ذكر لي كذا وكذا فإن كان الذي ذكر لي على ماذكر فلا تراجعني فيه وارددده عليه، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : إن هذا لهو البلاء المبين [1] .

فهذا مثل من حزمه رحمه الله في تطبيق العدالة حتى مع أقاربه حيث أمر عامله بأن يرد الحق على صاحبه وإن كان المدَّعَى عليه من أقاربه .

وفي هذا الخبر مثل من الذل الذي تتربَّى عليه النفوس في حال

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

تسلُّط الجبروت والطغيان ، حيث تلعثم صاحب الحق في رفع قضيته مع أنه أمام حاكم عادل ، ولكن الخلفيات السابقة لحكم الظلم والتسلط جعلته يتردد ويتتعتع ، ولو لم يكن على رأس الحكم حاكم عادل لما فكر أساسًا في رفع قضيته لأنه – والحال هذه – يخشى أن يناله أذى فيما إذا رفع قضيته ضد أحد أقارب الحاكم.

اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين :

من ذلك أنه كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية : أما بعد : فإنكم تعدُّون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله ، واعلموا أني لست أقسم شيئًا بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه ، وإني قد بعثت إليكم خمسة دنانير خمسة دنانير ، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم ، وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم ، ذكركم وأنثاكم ، حرَّكم ومملوككم بما سئل به ، فأبشروا ثم أبشروا . والسلام عليكم .

وكتب أيضًا إلى عماله : أن اقضوا عن الغارمين ، فكُتب إليه : إنا

نجد الرجل له المسكن والخادم ، وله الفرس ، وله الأثاث في بيته ، فكتب عمر : لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ماعليه من الدين [1] .

ففي الكتاب الأول يواسي عمر بن عبد العزيز أسرى المسلمين لدى الروم ، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى ، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين .

وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به ، وبما أخبرهم به من كفالة أُسَرِهم في حال غيبتهم ، كما أنه وعدهم جميعًا بمفاداتهم لفكِّ أَسْرِهم .

وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره.

وفي الخبر الثاني يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٣ – ١٦٤ .

الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس ، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة ، والاهتمام بشؤون الرعية .

وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بمال الأمة ، حيث يُغنون به فقيرها ، ويجبرون به كسيرها، ويفكُّون به أسيرها ، ويقضون به عن معسرها ، ويسدُّون به خلَّة معوزها .

خبره مع الأسير الأعمى :

من الأمثلة الرائعة لرحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله واهتمامه بالمسؤولية ما أخرجه ابن عبد الحكم قال : وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولا ، فأتاه وخرج من عنده يدور ، فمر بموضع فسمع فيه رجلا يقرأ القرآن ويطحن ، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام- مرتين أو ثلاثا – ثم سلم عليه ، فقال له : وأنَّى بالسلام في هذا البلد ! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم ، فقال له : ماشأنك ؟ فقال : إني أسرت من موضع كذا وكذا ، فأُتِي بي إلى صاحب الروم ، فعرض عَليَّ النصرانية فأبيت ، فقال لي : إن لم

تفعل سمَلْتُ عينيك ، فاخترت ديني على بصري ، فسَمَل عينيَّ وصيَّرني إلى هذا الموضع ،يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها .

فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل قال : فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلَّت مابين يديه .

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم : أما بعد فقد بلغني خبر فلان ابن فلان فوصف له صفته ، وأنا أُقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندي .

فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع مارجعت ! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ماكنا لنحمل الرجل الصالح على هذا ، بل نبعث إليه به .

قال: فأقمت انتظر متى يخرج به ، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة ، فقال: تدري لما فعلت هذا ؟ فقلت : لا – وقد أنكرت مارأيت – فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات ، فلذلك فعلت مافعلت ، ثم قال : إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السُّوء لم يُتْرَكْ بينهم إلا

قليلا حتى يُخرج من بين أظهرهم .

فقلت له : أتأذن لي أن أنصرف – وأيست من بعثه الرجل معي – فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته ، فأرسل معه الرجل [1] .

هذا وإن في هذا الخبر ثلاثة أمور مهمة :

أ – موقف هذا الرجل المسلم الذي فضَّل البقاء على دينه ، وتحمَّل سمل عينيه بالحديد المحمي بالنار حتى فقد بصره ، وهنا يقف المتأمل مندهشًا من هذا المشهد المثير ، الذي يدل على قوة الإيمان بالإسلام والقناعة به ، حيث فضل هذا الرجل دينه على صحته وحياته،لأنه يَعدُّ هذا الدين هو حياته الحقيقية ، ويَعدُّ مفارقة الإسلام موتًا لايدانيه موت .

ولاشك أنه كان لهذا الموقف العالي وأمثاله الأثر البالغ في الدعوة إلى الإسلام،لأن العقل السليم يدل على أن المبدأ الذي يفضله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٨ .

صاحبه على حياته لايمكن أن يكون عاديًّا كمبادئ البشر المعروفة، لأن المبادئ تُستخدم عادة لرفع قيمة الإنسان في هذه الحياة،فلايمكن أن يضحِّي الإنسان بحياته من أجلها ، وهو إنما يستخدمها للحياة ، فلابد أن المبدأ الذي يبذل صاحبه حياته من أجله وراءه دافع أقوى ومستقبل أكبر من هذه الحياة، ولايمكن أن يوجد ذلك إلا في الإسلام الذي كرم الله تعالى فيه الشهداء والذين أوذوا في سبيل هذا الدين ، ورفعهم درجات عليا في الجنة .

هذا الرجل المسلم المغمور الذي لم يُذكر اسمه مثَّل هذا الموقف الكبير ، فكم في هذه الأمة الإسلامية من المغمورين الذين يزن إيمانهم الجبال الراسيات !

وإذا كان هذا في المغمورين فكيف الحال بالمشاهير الذين لمعت أسماؤهم في مجال التضحية والفداء ؟!

ب – وفي هذا الخبر مثل من رحمة عمر بن عبد العزيز البالغة وإشفاقة على المسلمين حيث بكى ذلك البكاء الشديد من خبر ذلك الأسير .

ومثل من اهتمامه العظيم بأمور المسلمين حيث كتب إلى ملك الروم يهدده ذلك التهديد القوي إن لم يُفرِجْ عن ذلك الأسير .

ج – كما أن في هذا الخبر بيانًا لأثر العدل في الحكم حتى على الأعداء المحاربين ، فحينما جاء كتاب عمر الذي بلغ حدا عاليا في التهديد لملك الروم ماكان من هذا الملك إلا أن قال : ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا .

وحينما بلغه موت عمر تأثر بذلك وظهرت الكآبة على وجهه ، وذلك لأنه حتى الأعداء ينعمون بعدل الأمراء من أعدائهم ، لأنهم يأمنون خيانتهم وظلمهم لهم ولأتباع دينهم الذين يعيشون في بلاد هؤلاء الأمراء .

وقد بلغ بملك الروم التأثر بعدل عمر إلى حد أنه وفى بما وعد به حتى بعد موته وقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته .

موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد ، ويخلع سليمان بن عبد الملك ، ففَرِق زيدٌ من الوليد فأجابه ، فلما استُخلف سليمان وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك فكتب إلى أبي بكر بن حزم – وهو أمير المدينة – ادع زيد بن حسن فأقرئه هذا الكتاب فإن عرفه فاكتب إلي بذلك ، وإن نكل فقدِّمه فأظهر يمينه على منبر رسول الله ﷺ : ماكتب هذا الكتاب ولا أمر ، فأرسل إليه أبو بكر ابن حزم فأقرأه الكتاب ، فقال : أنظرني مابيني وبين العشاء أستخير الله . قال : فأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله يستشيرهما . قال : فأقاما معهما ربيعة فذكر لهما ذلك ، وقال: إني لم أكن آمَنُ الوليد على دمي لو لم أجبه ، فقد كتبت هذا الكتاب ، أفترون أن أحلف ؟ فقالوا : لاتحلف ولاتبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله ﷺ ، فإنا نرجو أن يُنجيك الله بالصدق ، فأقرَّ بالكتاب ولم يحلف . فكتب بذلك أبو بكر بن حزم إلى سليمان ، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه مائة سوط، ويُدرعه عباءة ،ويُمشيه حافيًا ، فتشكى سليمان.

فقال عمر بن عبد العزيز للرسول : لاتخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن ، لعلي أستطيب نفسه فيترك هذا الكتاب . قال: فحبس الرسول والكتاب ، ومرض سليمان فقال عمر : لاتخرج فإن أمير المؤمنين مريض ، إلى أن رُمي في جنازة سليمان ، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فدعا بالكتاب فخرقه [1] .

وهكذا نجى الله تعالى زيد بن حسن من بأس سليمان بن عبد الملك وبطشه بذلك السلوك الحكيم من عمر بن عبد العزيز ، وإنه لعجيب من أولئك الأمراء أن يحرجوا كبراء الأمة وفضلاءها بإدخالهم في تجاوزاتهم السياسية وجعلهم معرضين لنقمة الحاكم الحالي إن لم يوافقوا على تحقيق مراده أو نقمة الحاكم القادم إن وافقوا على ذلك ، فكان زيد بن حسن قد فضل درء الشر الحاضر على أمل أن لايكون الشر المستقبل ، ولكنه وقع وكاد أن يتعرض للتعذيب المذكور لولا أن انقذه الله تعالى بما فعله عمر بن عبدالعزيز .

---

(١) سيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم / ١١٩ – ١٢٠ .

تـأديبه من سخَّر أهل الذمة :

أخرج محمد بن سعد من خبر سهل بن شعيب أن ربيعة الشعوذي حدثهم قال : ركبتُ البريد إلى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبت السُّخْرة [1] حتى أتيته وهو بخناصرة فقال : مافعل جناح المسلمين ؟ قال قلت : وماجناح المسلمين يا أمير المؤمنين ؟ قال: البريد . قال قلت : انقطع في أرض أو مكان كذا وكذا. قال: فعلى أيّ شيء أتيتنا ؟ قال قلت: على السخرة تسخرتُ دوابّ النبط . قال : تسخّرون في سلطاني ؟ قال فأمر بي فضربتُ أربعين سوطًا ، رحمه الله [2] .

فهذا من أبلغ أمثلة العدل ، حيث يأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بضرب أحد عماله لكونه سخَّر أهل الذمة لحمله على دوابهم ، فهو يرى أن ذلك ظلم لهم ، فما أسمى أحكام الإسلام التي يصل بها

---

(١) يعني سخر من مر بهم من أهل الذمة ليحملوه على دوابهم .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٤ .

أهل الذمة من الكفار إلى حقوقهم الكاملة ويتمتعون بها بالعدل والأمن !! ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى حكام عادلين لتتمثل في واقع الحياة فيشاهدها الناس أجمعون ، ويكون لها الأثر الكبير في تعظيم الإسلام والانجذاب إليه .

مثل من بركة الحكم بالعدل :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثني أبي عن جدي . قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل ، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا ، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد وأسأله : آخذ من الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة أو آخذهم بالبينة وماجرت عليه عادة الناس ؟ فكتب إلي أن آخذ الناس بالبينة وماجرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . قال يحيى : ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا [1] .

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٧١ .

فهذا مثال على أن البركة والسعادة والأمن تتوافر في تطبيق شريعة الإسلام ، فإن عصاة المسلمين وإن جرت منهم جنوحات إجرامية فإنهم مؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، فإذا شعروا بأنهم يُحكَمون بالدين وأن الحاكم صادق ومخلص في تطبيق الإسلام فإنهم يرتدعون بأقل الروادع، ويصبح من يلومهم على إجرامهم يتكلم باسم الدين فيرعوي من في قلبه بقية من جذوة الإيمان ويقظة الضمير،ولايصر على الإجرام إلا من قست قلوبهم وغلظت طباعهم، وهؤلاء لايرتدعون إلا بتطبيق الحدود الشرعية ، ولكن عددهم في المجتمع الإسلامي محدود ، فالقضاء على الجرائم – والحال هذه – متيسر للحاكم العادل الذي يطبق الحق على كل المسلمين ، ومن هذا المنطلق نجح هذا الحاكم في إقرار الأمن والقضاء على الجرائم .

أما إذا كان الحاكم يأخذ الناس بالظن ولايتقيد بأحكام الشريعة فإن من عندهم ميل للجرائم يغالبون الحاكم بالتحدي ، ولاينشط المتقون للإنكار على المجرمين لأن القضية تكون بينهم وبين سلطان متجبر ، فيكون موقف المتقين ضعيفا حينما يقاومون أصحاب الجرائم لأن موقفهم قد اقترن بموقف الحاكم المتسلط .

إنصافه الأعراب من بعض بني أمية :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر سليمان بن موسى أنه بلغه أن قوما من الأعراب خاصموا إلى عمر بن عبد العزيز قوما من بني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها ، فأخذها الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله ، فقال عمر بن عبد العزيز : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله من أحيى أرضا ميتة فهي له» ، فردها على الأعراب [1] .

فهذا مثل من عدل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، حيث أنصف الأباعد عنه من المقربين إليه ، وفي الخبر دلالة على أهمية العلم الشرعي للحاكم وأثر ذلك في سلوك الطريق المستقيم والسلامة من الزلل .

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل / ٢٩٠،وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٨٥ .

وصيته عماله بالتقوى والعدل :

قال ابن عبد الحكم ، كتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال[1] ، أما بعد : فإن هذا الأمر الذي ولاني الله لو كنت إنما أصبحت ورغبتي فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج أو اعتقاد أموال لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قبل ماولاني من أفضل مابلغ بعباده ، ولكني أصبحت له خائفًا ، أعلم أن فيه أمرًا عظيما وحسابا شديدًا ومسألة غليظة[2] عند مجاهدة الخصوم بين يدي الله إلا ماعافى الله ورحم ودفع ، وإني آمرك فيما وليتك من عملي وأفضيت إليك من أمري بتقوى الله ، وأداء الأمانة واتباع ما أمر الله به واجتناب مانهى الله عنه ، وقلة الالتفات إلى شيء خالف ذلك ، ليكون الذي آمرك به في سيرتك والنظر في نفسك وفي عملك ، وماتفضي به إلى ربك وماتعمل به فيما بينك وبين الرعية قِبَلَك ، وأنت

---

(١) في تاريخ الطبري أن هذا الخطاب موجه إلى يزيد بن المهلب .

(٢) في كتاب ابن عبد الحكم « لطيفة » وأثبت مافي تاريخ الطبري لأنه أنسب لسياق الكلام .

تعلم علما يقينا أنه ليس نجاة ولاحرز إلا أن تنـزل بذلك المنـزل من طاعة الله ، ودع أن ترصد شيئًا ليوم ترجوه أو تخافه سوى ماترجوه غدًا من الله تعالى وتخاف منه ، فإنك قد رأيت عبرًا في نفسك وعبرًا ما مثلُها وُعظ مثلُنا وكفى،ومثلُها أصابك إلى حظك من الله،والسلام[1] .

فهذا الخطاب يبين عظمة شعور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالمسؤولية ، حيث فهم وبين أن الولاية مغرم لامغنم ، فهي جدٌّ وعمل وهمٌّ متواصل ، وإنما يدفع إلى فهم حقيقتها ، والنجاة من مزالقها شعور صاحبها بالوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ، وأن يُعدَّ لكل قضية جوابا ، فإذا لم يستطع إعداد الجواب في الدنيا فإنه أعجز عنه في الآخرة ، وإنما يكون إعداد الجواب بتنقية السيرة وتطهير السريرة ، وبذل الجهد في الإصلاح ، فإن العامل لايُلام بعد بذل الجهد على ماكان منه من تقصير أو خطإٍ لايعلمه ، أما إذا كان هدف العامل اكتساب مجد الدنيا ومتاعها وتجنب خسارتها فإنه قد حكم على

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٢ ، تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٦ – ٥٦٧.

نفسه بالهلاك ، وضيع باختياره سبيل النجاة ، فلا يلومنَّ إلا نفسه المفرِّطة ، ولاينتَقِصَنَّ إلا فكره المنحرف .

ومن ذلك ماذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمير الأجناد : أما بعد فإنه من بُلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة وبلايا عظام ، إن غابت عنه يوما فهي حَرِيَّة أن تحضره في اليوم الآخَر ، وإنه ليس أحد بأشغل عن نفسه ولا أكثر تعرضًا لزيغ من ولي السلطان ، إلا ماعافى الله ورحم : فاتق الله ما استطعت ، واذكر منـزلك الذي أنت به والذي حُمِّلت ، وقاتل هواك كما تقاتل عدوك ، واصبر نفسك عما كرهت ابتغاء ماعند الله من حسن ثوابه الذي وَعد به المتقين فيما بعد الموت ، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله ، فإذا حضرك الخصم الجاهل الخَرِق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن تبتلى به فرأيت منه سوء رِعَة وسوء سيرة في الحق الذي عليه والحظ الذي له فسدِّده ما استطعت وبصِّره ، وارفق به وعلِّمه ، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت

نعمة من الله وفضلا ، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه ، فإن رأيت أنه أتى ذنبا استحق فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك عليه ، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبه بالغًا مابلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جَلدةٍ واحدة تجلده إياها ، وإن كان ذنبه فوق ذلك ، ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قَتْلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن ، ولايسرعنّ بك إلى عقوبته حضور من يحضرُك ، فإنه لعمري ربما عاقب الإمام لمحضر جلسائه ، ولتأْديب أهل بلده ولتغامزهم به ، وما من إمام له جلساء إلاَّ سيكون ذلك فيهم وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيختلفون فيه على أهوائهم ، إلا من رحم الله ، فإن من رحم الله لايختلفون في قضاء ، فإنه قال ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود : ١١٨-١١٩] .

وإذا استجهلت فتثبت ، وإذا نظر إليك من حولك ما أنت فاعل بسفيه من رعيَّتك إن سفه أو أخطأ خطيئة فاعمد في ذلك للذي ترى أنه أَبرُّ وأَتقى وخيرٌ لك غدًا فيما بعد الموت ، ولايطربك نظرهم إليك ولاحديثهم عنك فإنهم لايبقى في أنفسهم حديثٌ أحبُّوه أو

كرهوه إلاَّ قليلاً إلا أَبْدَوْهُ . فاغتنم كل يومٍ أخرجك الله فيه سالمًا ، وكل ليلةٍ مضت عليك وأنت فيها كذلك وأكثرْ من دعاء الله بالعافية لنفسك ، ولمن ولاَّك الله أمره ، فإن لك في صلاحهم ماليس لأحد منهم وإن عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك ماليس على أحد منهم . ولاتبتغ منهم جزاء خيرٍ أحسنته إليهم ، ولابتسديد سددتهم ، ولاتطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاءً ولاثوابًا ولامدحةً ولاحظوة ، وليكن ذلك لمن لايعطي الخير ولايصرف السوء غيره ، ثم تعاهد صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث ، فلا يعملون في شيء ماتحت يدك بغشم ولابظلم ، وأكثر المسألة عنهم ، فمن كان منهم محسنًا نفعه ذلك ، ومن كان مسيئًا استبدلت به من هو خير منه .

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن ييسر لنا أمورنا ، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى ، والعمل فيما يحب ويرضى ، وأن يعصمنا من المكاره كلها ، وأن يجعلنا من الذين لايريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، ومن المتقين الذين لهم العاقبة ،

والسلام عليكم ورحمة الله [1] .

ففي هذا الكتاب بيان خطورة الولاية وأنها مزلة قدم ، ولايسلم من زلاتها إلا من رحمه الله تعالى ، فالولاية إما عمل صالح عظيم الدرجات لمن عف وعدل واستقام ، وإما عمل سيء يؤدي إلى الهلاك لمن رتع وجار وانحرف ، ولولا أنها في بعض صورها عمل صالح لما أقدم عليها من يخشى الله ويتقيه .

وإذا تقلد الإنسان ولاية برز هوى نفسه الأمارة بالسوء لكثرة المغريات ، فإذا لم يتصور الإنسان نفسه التي بين جنبيه عدوًّا له في بعض الأحيان فإنه سالك سبيل الهلاك ، لأنه لن يعمل على كبح جماح النفس وتقويمها ، وقد تكره النفس الاستقامة على منهج الإسلام الكامل فلابد من إكراهها على سلوك هذا السبيل ، وسيتحول الأمر بعد شيء من المعاناة – تقصر أو تطول- إلى منهل عذب وسبيل رحب، تهواه النفس المطمئنة وتنافس عليه .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٨١ – ٨٣ .

والمسؤول يبتلى بمعاملة الناس على مختلف أذواقهم ومشاربهم ، وقد تتحول هذه المعاملة إلى معاناة ومكابدة ، فلا يغتر المسؤول بكونه أقدر على أفراد رعيته منهم عليه فيعاملهم بشيء من العنف والقسوة وإن ساءت معه أخلاقهم وغلظت معه طباعهم ، بل عليه أن يبذل جهده في تعليم الجاهل الأدب وحسن المعاملة ، فإن التعليم من الأعلى له دوره المؤثر ، حيث إنه يملك هيبة الولاية، فإذا تحول عما يُنتظر منه عادة من محاولة فرض السيطرة إلى محاولة تعليم الناس وتهذيب أخلاقهم فإن النفوس تُكْبِر ذلك فيه وتقبل على توجيهه .

وإذا أخطأ أحد أفراد الرعية خطأً يستحق عليه العقوبة فمن واجب الوالي أن يتأنى في إجراء العقوبة ، وأن لايحكم عليه وهو غضبان ، فإن مع الغضب شيطانا ، والقوة الغضبية أميل إلى الجور والعسف ، ولذلك أمر النبي ﷺ من غضب بالوضوء أو بالقعود إن كان قائمًا ليزول غضبه قبل أن يتصرف ، ولييندحر شيطانه .

وإن من فضائل بعض الأنظمة الإدارية المعاصرة أن المسؤول لايجري العقوبة وحده ، وإنما يحيل الأمر إلى لجنة مختصة بدراسة

القضايا وتحديد العقوبات المناسبة ، فإن هذا النظام يبعد حالة التصرف مع الغضب تمامًا ، ويتيح الفرصة لدراسة الأمور بتؤدة وروية ومشورة بين عدد من الأفراد ، فهو أدنى إلى التثبت والعدالة ، وأبعد من المجازفة والجور .

وإن مما يحمل المسؤول أحيانًا على القسوة والحيف محاولة الإبقاء على هيبة السلطة والظهور أمام جلسائه ومن تحت إدارته بمظهر القوة، وقد يداهنه من حوله بتحريضه على المخالف لظنهم بأن ذلك يكسبهم رضاه ، فيسهمون بذلك في حمله على الظلم .

وقد يحصل ماهو ضد ذلك إذا كان لبعض الجلساء أو الإداريين غرض في التخفيف عن المخالف فيحاولون أن يؤثروا على المسؤول ليعفو عن المخالف ، وقد يترتب على ذلك تضييع بعض الحقوق أو الجرأة على المخالفة .

ولذلك فإن من أقوى العواصم من الانحراف في الحكم أن تحال القضايا إلى لِجانٍ متخصصة لدراستها وتقدير العقوبة المناسبة مع حسن اختيار أعضائها ومراقبتهم .

وإن مما أوصى به عمر بن عبد العزيز في هذا الخطاب أن لا يستجلب الوالي بما يقدمه من خير وإصلاح ثناء الناس ولاجزاءهم ، وإنما يطلب من الله تعالى الأجر والثواب على عمله ليكون خالصًا ، وإذا كان كذلك فإنه أدعى للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة .

إنصافه الذميين من أهل نجران :

أخرج المؤرخ أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الحسن البصري قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا : إنا قد أسلمنا قبلك ، فقال ، كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث ، أكلكما الخنـزير ، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد . قالا : فمن أبو عيسى ؟ قال الحسن : وكان النبي ﷺ لايعجل حتَّى يأمره ربُّه فأنزل الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٨ – ٥٩] .

فقرأها رسول الله ﷺ عليهما ثم دعاهما إلى المباهلة [1] وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين فقال أحدهما لصاحبه : اصعد الجبل ولاتباهله فإنَّك إن باهلتهُ بُؤْتَ باللعنة ، قال: فما ترى قال: أرى أن نعطيه الخراج ولانباهله .

ثم ذكر كتاب النبي ﷺ إليهم وفيه أنه وضع عليهم ألفي حلة في كل عام .

ثم ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمضى ذلك عليهم .

ثم ذكر رواية من خبر سالم بن أبي الجعد قال: كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا: أَجْلِنا ،وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها فأجلاهم، فندموا بعد ذلك وأتوه فقالوا : أَقِلْنا ، فأبى ذلك ، فلما قام علي بن أبي

---

(١) المباهلة الملاعنة وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

طالب ﷺ أتوه فقالوا : ننشدك خطك بيمينك [1] وشفاعتك لنا عند نبيك إلا أَقَلْتَنا فقال : إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه .

وذكر أن بعضهم جلا إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة ونزلوا في ناحية سُمِّيت النجرانية باسمهم .

وذكر أنهم أتوا إلى عثمان بن عفان ﷺ وأنه كتب إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة بأن يضع من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله تعالى وعُقْبَى لهم من أرضهم وقال : وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

وذكر أنهم لما ولي معاوية ﷺ أو يزيد بن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم وأنهم أحضروا كتاب عثمان بن عفان ﷺ بما حطَّ عنهم من الحلل ، وقالوا : إنما ازددنا نقصانا وضعفا فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة .

قال : فلما ولي الحجاج بن يوسف العراق وخرج ابن الأشعث

---

(١) يعني أنه هو الذي كتب لهم الكتاب في عهد رسول الله ﷺ .

عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم معهم فردهم إلى ألف وثمانمائة حلة ، وألزمهم بنوع جيد منها .

قال : فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وإلحاح الأعراب بالغارة عليهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج إياهم ، فأمر فأحصوا فوجدوا على العشر من عِدَّتهم الأولى ، فقال : أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح على أرضيهم، وجزية الميت والمسلم ساقطة فألزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم [1] .

فهذا الخبر يبين لنا شيئًا من علم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعدله ورحمته ، فهو قد أدرك بأن جزية الذميين من أهل نجران على رؤوسهم وليست على أراضيهم ، والأفراد ليس عددهم ثابتا بل يزيدون وينقصون ،ولما كان عددهم قد أصبح على عشر من عددهم أيام رسول الله ﷺ فإن جزيتهم ينبغي أن تنقص إلى العشر ،وهذا من الفقه في معرفة السنة النبوية ،وقد توَّج فهمه هذا بالعدل والرحمة ،

---

(١) فتوح البلدان / ٨٦ – ٩١ .

حيث أنقص جزيتهم إلى العشر ،وهو بهذا يكون قد طبق سنة النبي ﷺ في تقدير جزيتهم .

إنصافه الذميين من أهل قبرص :

أخرج البلاذري من طريق محمد بن سعد عن الواقدي بإسناده قال : لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ،فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم ،ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها ، فجرى ذلك إلى خلافة أبي جعفر المنصور فقال : نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية [1] .

فهذا أيضًا مَثَلٌ من إنصاف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في معاملة الذميين من أهل قبرص حيث وضع عنهم الزيادة التي رآها ظلما لهم ، وقد تأسى به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في هذه العدالة رحمهما الله تعالى .

---

(١) فتوح البلدان / ٢١٠ – ٢١١ .

إنصافه أحد المظلومين من اليمن :

ذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن متظلما فقال :

تدْعون حيران مظلومًا ببابكم فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

فقال ما ظُلامتك ؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي ، فقال : يامزاحم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه : أصفى عبد الله الوليد ابن عبد الملك ضيعة فلان ، فقال أخرجها من الدفتر وليكتَبْ بِردِّ ضيعته إليه ويُطلقْ له ضِعفْ نفقته[1] .

وهكذا طمع في عدل أمير المؤمنين أبناء البلاد البعيدة ، فجاء هذا الرجل من اليمن يطلب حقه الذي اغتُصب منه ، فأعاد إليه عمر أرضه وأعطاه ضِعْف نفقته التي صرفها في سفره ، ليكون ذلك تعويضا عما صرفه في قدومه وماسيصرفه في عودته ، لأن من حقه أن تعود إليه أرضه المغتصبة وهو في بلده دون أن يتكلف شيئًا .

---

(١) الأحكام السلطانية / ١٠٣ .

موقف لأمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك رحمه الله

من أخبار الانتصار للمظلومين ماذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة أربع ومائة، قال: وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة ، وأن يضرب عبد الرحمن ابن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار ، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فدخل على أخيه فقال : إني لي إليك حاجة ، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال: هو والله حاجتي ، فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه ، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف ، فسأل الناس بالمدينة .

وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهرا ، وكان الزهري

قد أشار عليه برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء ، ثم كان هذا آخر أمره[1] .

هذا وإن الناظر في هذا الخبر يرى شدة في الحكم على ذلك الأمير، ولكن إذا قورن ذلك بجريمته التي كان يريد ارتكابها فإن تلك العقوبة تبدو مناسبة ، لأن مهمة الحاكم هي الحكم بين الناس وإدارة أمورهم والعدل بينهم ، فأما حينما يستغل الحاكم سلطته للاعتداء على حرية أفراد الرعية فإنه جدير بأن يبعد عن الولاية وأن يعاقب على ذلك العدوان ، ولعل هذا الموقف الجيد في الشهامة والعدالة من يزيد بن عبد الملك يخفف من آثامه التي اشتهر بها في اللهو والمظالم .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٨ .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله

من ذلك ماذكره الإمام الطبري من خبر إسحاق بن موسى بن عيسى:أن المنصور ولَّى رجلا من العرب حضرموت ، فكتب إليه والي البريد أنه يُكثر الخروج في طلب الصيد بِبُزَاةٍ [1] وكلاب أعدَّها ، فعزله وكتب إليه ، ثكلتْك أمك وعدمْتك عشيرتك ؟ ماهذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟! إنا إنما استكفيناك أمور الناس ولم نستكفك أمور الوحش ، سلِّم ماكنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان، والْحق بأهلك ملوما مدحورا [2] .

فهذا مثال على اهتمام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بالمسؤولية حيث عرف مايجري من ذلك الوالي على بعد المسافة بينه وبينه ، فاتخذ هذا الإجراء الصارم ضده ، وهذا يدل على حزم المنصور وجدِّه ، وبذلك استطاع أن يسوس دولة تمتد من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا مع ما اكتنفها من الفتن الداخلية وحداثة عهد هذه الدولة.

---

(١) هي الطيور التي تستعمل في الصيد .

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٦٨ .

من مواقف القاضي أبي يوسف رحمه الله

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم أنه قال : وليتُ هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولاميل إلى أحد إلا يوما واحدا ، جاءني رجل فذكر أن له بستانا وأنه في يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي ، فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يُحضره لأسمع دعواه ، فأحضره فادعى بالبستان ، فقلت: ماتقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال:هو بستاني ، فقلت للرجل :قد سمعت ما أجاب ، فقال الرجل: يحلف ، فقلت : أتحلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت : سأعرض عليك اليمين ثلاثا فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين ، فعرضتها عليه ثلاثا فامتنع ، فحكمت بالبستان للمدعي، قال : فكنت في أثناء الخصومه أود أن ينفصل ، ولم يمكني أن أُجلس الرجل مع الخليفة، وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان للرجل [1].

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٧، وأمير المؤمنين ا لمذكور هو هارون الرشيد .

فهذا شيء عظيم أن يحكم القاضي أبو يوسف تلك السنوات الطويلة وهو يتحرى العدل ويطبقه ولم يظلم أحدا ، وإن كان قد شعر بخطئه في مقدمات الحكم في هذه القضية ، حيث لم يُجلس الخليفة وخصمه في مجلس سواء ،مع أنه قد حكم على الخليفة لصالح خصمه، وكونه أصدر هذ الحكم ، وكونه أيضا أظهر ندمه على عدم المساواة بين الخليفة وخصمه دليل على قوة إيمانه وورعه .

فما أعظم هذا القاضي وأمثاله من القضاة الذين يحكمون على أعلى مسؤول في العالم !!

من مواقف القاضي حفص بن غياث رحمه الله تعالى

قال ابن خلكان : قال حميد بن الربيع : لما جيء بعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث ووكيع بن الجراح إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ليوليهم القضاء دخلوا عليه ، فأما ابن إدريس فقال: السلام عليكم وطرح نفسه كأنه مفلوج ، فقال هارون : خذوا بيد الشيخ لا فضل في هذا، وأما وكيع فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أتصرف بها منذ سنة ، ووضع إصبعه على عينه وعنى إصبعه ، فأعفاه ، وأما حفص بن غياث فقال : لولا غلبة الدين والعيال ماوليت [1] .

فهذه مواقف عالية من هؤلاء العلماء حيث تورع عبد الله بن إدريس ووكيع بن الجراح الرؤاسي من تولي القضاء ، والامتناع عن القضاء منهج سار عليه كثير من العلماء ، لما قد يتعرض له القاضي من ضغوط من الناس أو من الولاة وغير ذلك من الفتن ، مع أن القاضي إذا عدل ولم يرتكب مأثما فإنه يؤدي عملا من أزكى الأعمال الصالحة،

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨ .

ولكن أولئك العلماء يأخذون بقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

أما حفص بن غياث فإنه قد أجاب إلى القضاء ، حيث دعته ضرورة المعيشة إلى ذلك، ولم يكن له هدف في الجاه والسمعة ولا في التكثر من الدنيا ، ولقد كان مثالا للعدل في القضاء .

ومن أمثلة عدله ماذكره ابن خلكان من خبر غنام بن حفص قال: باع رجل من أهل خراسان جمالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أُم جعفر[1] فمطله ثمنها وحبسه عن سفره ، وطال ذلك على الرجل ، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره فقال له : اذهب إليه فقل له : أعطني ألف درهم وأحيل عليك ببقية المال وأخرجُ إلى خراسان : فإذا فعلتَ هذا فأخبرني حتى أشير عليك، ففعل الرجل وأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره فقال: عد إليه فقل له : إذا ركبت غدًا فطريقك على القاضي

---

(١) هي زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

تحضر ، وأُوكلُ رجلاً بالقبض على المال وأَخرجُ ، فإذا جلس إلى القاضي فادّع عليه بما بقي لك من المال ، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك .

فرجع إلى مرزبان فسأله فقال: انتظرني بباب القاضي ، فلما ركب من الغد وثب إليه الرجل وقال : إن رأيت أن تترك إليَّ القاضي [1] حتى أُوَكِّل بقبض المال وأَخرجُ ، فنـزل مرزبان إلى حفص المذكور فقال الرجل : أصلح الله القاضي ، لي على هذا الرجل تسعة وعشرون ألف درهم، فقال حفص : ماتقول يامجوسي ؟ قال: صدق ، أصلح الله القاضي ، فقال القاضي : ماتقول يارجل فقد أقرّ لك ، فقال: يعطيني مالي ، فأقبل حفص على المجوسي فقال: ماتقول ؟ فقال: هذا المال على السيدة ، فقال : أنت أحمق تقر ثم تقول على السيدة ؟ ماتقول يارجل؟ قال: أصلح الله القاضي إن أعطاني مالي وإلا حبستَه ، قال حفص : ماتقول يامجوسي ؟ قال: المال على السيدة ، فقال حفص : خذوا بيده إلى الحبس .

---

(١) يعني أن تذهب معي إلى القاضي .

فلما حُبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندي : وجِّهْ إلى المرزبان ، وكانت القضاة تحبس الغرماء في مجلس الشرط ، فأخرجَه ، وبلغ الخبر حفصًا فقال: أحبس أنا ويُخرج السندي ؟ لاجلست مجلسي هذا أو يردّ مرزبان إلى الحبس ، فجاء السندي إلى أم جعفر فقال: الله الله فيَّ ، إنه حفص بن غياث وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لي : بأمر من أخرجته ؟ رديه إلى الحبس ، وأنا أكلم حفصًا في أمره ، فرجع مرزبان إلى الحبس [1] .

فهذا الخبر فيه موقف قوي للقاضي حفص بن غياث ، حيث حكم على وكيل زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، وحيث غضب حينما أخرج رئيس الشرطة ذلك الرجل الذي حبسه حفص وصمم على ترك القضاء إن لم يرجع ذلك الرجل إلى الحبس.

وهكذا تكون مواقف القضاة الذين يريدون بعملهم وجه الله تعالى ولايعظمون معه مخلوقا يرجونه أو دنيا يعملون لها ، فإن من كان

---

(١) وفيان الأعيان ٢/ ١٩٩ .

كذلك فإن عظمة الله تعالى وخشيته ورجاءه تتضخم في القلب حتى تملأه فلا يكون فيه متسع لأي قوة من القوى الدنيوية ، وبذلك يكتسب صاحب هذا القلب جرأة فائقة وقوة خارقة ، ويسخر الله تعالى له قلوب عباده إكراما له ومثوبة على خلوص نيته وحسن عمله.

ومن مواقفه العالية في القضاء أنه كان يَعدُّ نفسه أجيرا فلا يشتغل في الوقت المخصص للقضاء بغيره ، حتى لو كان الذي سيشغله أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول ابن خلكان : وقال الخطيب : كان حفص بن غياث المذكور جالسا في الشرقية للقضاء [1] فأرسل إليه الخليفة يدعوه فقال لرسوله : حتى أفرغ من الخصوم ، إذ كنت أجيرا لهم ، وأصير إلى أمير المؤمنين ، ولم يقم حتى تفرق الخصوم [2] .

وكان لايَعدُّ نفسه مستحقا لراتب القضاء إذا لم يحضر حتى لو كان معذورا بالمرض، وفي ذلك يقول غنام بن حفص : مرض أبي

---

(١) يعني الجهة الشرقية من بغداد وكان قد تولى قضاءها .

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨ .

خمسة عشر يوما فدفع إلي مائة درهم وقال : امض بها إلى العامل وقل له : هذه رزق خمسة عشر يوما لم أحكم فيها بين المسلمين لاحظ لي فيها [1] .

وهذان مثالان جليلان في الورع والعفة ومحاسبة النفس ، وهذا يدل على قوة إيمان القاضي حفص بن غياث وغزارة علمه رحمه الله تعالى .

ولقد ظل حفص بن غياث في القضاء عدة سنوات كان فيها قرير العين لما يتم على يديه كل يوم من إحقاق الحق وإبطال الباطل ، يدل على ذلك ماذكره ابن خلكان من خبر ابنه عمرو بن حفص قال : لما حضرتْ أبي الوفاة أغمي عليه فبكيت عند رأسه ، فأفاق فقال: مايبكيك ؟ قلت: أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر ، يعني القضاء، فقال لابنه : يابني ماحللت سراويلي على حرام قط ، ولا

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨ .

جلس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم بينهما [1] .

فهو يحمد الله تعالى على نزاهته وعفته وسلامته من الفتن التي يتعرض لها بعض القضاة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٨ .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله

قال الحافظ ابن كثير : جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة ، فجعل صوتها يعلو صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم[1] .

فهذا مثل من عدل الولاة حتى مع الأقارب الأدنين ، وقد تمثل عدل أمير المؤمنين عبد الله المأمون في إجلاس ابنه العباس مع تلك المرأة التي خاصمته ، وتوحيد المجلس بين الخصوم مظهر من مظاهر العدل ، كما ظهر عدله في إتاحة الفرصة لتلك المرأة في إبداء ظُلامتها مع ارتفاع صوتها، ثم في حكمه لها على ابنه ، والعدل من أهم أسباب استقرار الحكم ، لأن الحاكم يكسب بالعدل قلوب الرعية .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠ .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله [1]

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير قال : وقد أورد ابن الجوزي بإسناده أن المعتضد اجتاز في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة ، فوقف صاحبها صائحا مستصرخا بالخليفة ، فاستدعى به فسأله عن أمره فقال : إن بعض الجيش أخذوا لي شيئا من القثاء وهم من غلمانك ، فقال : أتعرفهم ؟ فقال: نعم ، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة ، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم ، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين على جادة الطريق ، فاستعظم الناس ذلك واستنكروه وعابوا ذلك على الخليفة ، وقالوا : قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه !! فلما كان بعد قليل أمر الخوَّاص – وهو مسامره – أن ينكر عليه ذلك ويتلطف في مخاطبته في ذلك والأمراء حضور، فدخل عليه وقد عزم على ذلك ، ففهم الخليفة مافي نفسه من كلام يريد أن يبديه ، فقال له : إني أعرف أن في نفسك كلاما فما هو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين وأنا

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي .

آمن؟ قال: نعم ، قال له : فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء ، فقال : والله ماسفكت دما حراما منذ وليت الخلافة إلا بحقه، فقال له : فعلام قتلت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهر له خيانة؟ فقال : ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه ، فلما دعاني إلى ذلك قلت له : ياهذا أنا ابن عم صاحب الشريعة ، وأنا منتصب في منصبه فأكفر حتى أكون في غير قبيلته !! فقتلته على الكفر والزندقة .

فقال له : فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء ؟ فقال : والله ماكان هؤلاء الذين أخذوا القثاء ، وإنما كانوا لصوصًا قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم ، فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء ، وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويعتدوا على الناس ويكفُّوا عن الأذى.

ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء فأطلقهم بعدما

استتابهم وخلع عليهم وردهم إلى أرزاقهم[1] .

فهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين المعتضد وذلك في الحزم والحكمة والعدالة ، فعلى الرغم من صغر هذا الموضوع فإنه أثار اهتمامه وجعله يفكر في طريقة يرهب بها الجنود ويكفهم عن الاعتداء على الناس ، فتذكَّر اللصوص الذين قتلوا فأحضرهم وقتلهم وأوهم أنه قتل أصحاب تلك الجريمة الخفيفة ليرتدع جميع الجنود بينما قدَّم للقتل ثلاثة قد وجب عليهم حد القتل شرعا ، وهذه سياسة حكيمة في ردع أصحاب الجرائم ، وذلك يدل على رغبة المعتضد في أن يسود الأمن في المجتمع مع حرصه على عدم ارتكاب الظلم ، وإذا كان الوالي حريصا على سيادة الأمن والقضاء على الجرائم فإنه يُسدَّد للمنهج الأفضل في ذلك .

وفي هذا الخبر دلالة على تغلغل الملحدين في الدولة الإسلامية حيث وصل ذلك الملحد إلى مرتبة عالية عند الخليفة المعتضد ، ثم تجرأ

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٢ – ٩٣ .

على دعوته إلى الإلحاد ، ولو نجح في ذلك لأحدث فتنة كبرى في العالم الإسلامي ، وكون ذلك الملحد وصل إلى تلك المنـزلة دليل على نقص الوعي الديني عند أهل العلم ، إذ كان يجب عليهم أن يعرفوا الملحدين وأن يتتبعوهم وأن يحذِّروا الولاة منهم حتى لايصلوا إلى مناصب قيادية فيفسدوا في الأرض .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال : ورَوى ابن الجوزي عن بعض خدم المعتضد قال : كان المعتضد يوما نائما وقت القائلة ، ونحن حول سريره ، فاستيقظ مذعورًا ثم صرخ بنا فجئنا إليه ، فقال : ويْحَكم اذهبوا إلى دجلة فأول سفينة تجدونها فارغة منحدرة فأْتُوني بملاحها واحتفظوا بالسفينة ، فذهبنا سراعا فوجدنا ملاحا في سَيْمرية [1] فارغة منحدرا ، فأتينا به الخليفة ، فلما رأى الملاح الخليفة كاد أن يتلف ، فصاح به الخليفة صيحة عظيمة ، فكادت روح الملاح تخرج ، فقال له الخليفة : ويحك اصدقني عن قصتك مع المرأة

---

(١) هي السفينة الصغيرة .

التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك .

قال : فتلعثم ثم قال : نَعمْ يا أمير المؤمنين كنت اليوم سحَرًا في مَشْرَعتي الفلانية فنـزلَت امرأة لم أر مثلها وعليها ثياب فاخرة ، وحليّ كثير وجوهر ، فطمعت فيها ، واحتلت عليها فشددت فاها وغرَّقتها وأخذْت جميع ماكان عليها من الحلي والقماش ، وخشيت أن أرجع به إلى منـزلي فيشتهر خبرها ، فأردت الذهاب به إلى واسط ، فلَقيني هؤلاء الخدم فأخذوني .

فقال : وأين حليُّها ؟ فقال : في صدر السفينة تحت البواري [1] ، فأمر الخليفة عند ذلك بإحضار الحلي فجيء به فإذا حلي كثير يساوي أموالا كثيرة .

فأمر الخليفة بتغريق الملاح في المكان الذي غرَّق فيه المرأة ، وأمر أن ينادَى على أهل المرأة ليحضروا حتى يستلموا مال المرأة ، فنادى بذلك ثلاثة أيام في أسواق بغداد وأزقتها، فحضروا بعد ثلاثة أيام ،

---

(١) هي الحصر من القصب .

فدفع إليهم ماكان من الحلي وغيره مما كان للمرأة ، ولم يذهب منه شيء .

فقال له خدمه : يا أمير المؤمنين من أين علمت هذا ؟ قال : رأيت في نومي تلك الساعة شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي : يا أحمد يا أحمد ، خذ أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه ، وقرِّرْه عن خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلَبها ، فأقم عليه الحد ، وكان ماشاهدتم[1] .

وهكذا نبَّه الله تعالى الخليفة المعتضد بذلك الشيخ الجليل الذي رآه في المنام ، وذلك من فضل الله جل وعلا عليه حتى لايقع تحت إمارته ظلم من غير أن يعلم ، إذ أن جرأة ذلك الملاح على قتل تلك المرأة وسلبها من مظاهر نقص الأمن وضعف الحراسة ، فأنقذ الله تعالى المعتضد من مسؤولية ضياع تلك المرأة بتلك الرؤيا الصالحة ، لأنه كان حريصا على العدل وإنقاذ المظلومين ، فنبهه الله لتلك المظلمة

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٤ .

من باب الجزاء بالحسنى على العمل الصالح .

وهذا مما يدخل في قول رسول الله ﷺ«تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[1] إذ أن قيام ذلك الحاكم بالعدل فيما يعلم من الأمور كان سببا في توفيقه إلى علم مالم يعلم من ذلك ليبرئ ساحته من وجود الظلم تحت مسؤوليته .

ومن أخباره في الشهامة والعدل ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر القاضي أبي الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال : كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطَلَني ومنعني حقي ، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه ، ويأمر غلمانه يؤذونني ، فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يُفِد ذلك شيئًا ، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئا ، ومازاده إلا منعًا وجحودًا ، فأيستُ من المال الذي عليه ودخلني همٌّ من جهته ، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي ، إذ قال لي رجل ألا تأتي فلانا الخياط – إمام مسجد هناك

---

(١) مسند أحمد ١/ ٣٠٧ .

– فقلت وماعسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم. وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه ؟ فقال لي : هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه ، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا . قال فقصدته غير محتفل في أمره ، فذكرت له حاجتي ومالي ومالقيت من هذا الظالم ، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملا من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له : ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذَّنت . فتغير لون الأمير ودفع إليَّ حقي .

قال التاجر : فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع [1] ذلك الأمير له ، ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل مني شيئًا ، وقال : لو أردت هذا لكان لي من الأموال مالا يحصى . فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة ،

---

(١) انطاع : انصاع واستمع .

وهو شاب حسن ، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة ، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منـزله ، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها : يامسلمون أنا امرأة ذات زوج ، وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منـزله ، وقد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منـزله ، ومتى بت ها هنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار لاتدحضه الأيام ولاتغسله المدامع .

قال الخياط:فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس في يده فشج رأسي،وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منـزله قهرًا ، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة:إن هذا قد فعل ماقد علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلّص المرأة منه ، فقام الناس معي فهجمنا عليه داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس،وقصدني هو من بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدماني،وأخرجنا من منـزله ونحن في غاية الإهانة .

قال : فرجعت إلى منـزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم ، وتحيَّرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منـزلها حتى لايقع على زوجها الطلاق ، فأُلهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منـزله فتذهب إلى منـزل زوجها ، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح ، فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون : أين الذي أذن هذه الساعة ؟ فقلت : ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه ، فقالوا : انزل ، فنـزلت فقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئًا ، حتى أدخلوني عليه ، فلما رأيته جالسًا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا ، فقال : ادْنُ ، فدنوت فقال لي : ليسكنْ رَوعك وليهدأ قلبك . وما زال يلاطفني حتى اطمأننت وذهب

خوفي، فقال : أنت الذي أذنت هذه الساعة ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : ماحملك على أن أذنت هذه الساعة ، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه ؟فتغرّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فقلت : يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري ؟ فقال: أنت آمن . فذكرت له القصة .

قال : فغضب غضبًا شديدًا وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأُحضرا سريعا فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضا ، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها ، فإنها مكرهة ومعذورة. ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير فقال له : كم لك من الرزق ؟ وكم عندك من المال ؟ وكم عندك من الجوار والزوجات ؟ فذكر له شيئًا كثيرًا . فقال له : ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده وتجرأت على السلطان ، وماكفاك ذلك أيضًا حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته ؟ فلم يكن له جواب . فأمر به فجعل في

رجله قيدٌ وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق [1] ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حتى خَفَتَ ، ثم أمر به فألقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد به . ثم أمر بَدْرًا صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط : كلما رأيت منكرًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولو على هذا – وأشار إلى صاحب الشرطة – فأعلمني – فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى مابيني وبينك الأذان ، فأذِّنْ في أي وقت كان ولو في مثل وقتك هذا .

قال : فلهذا لا آمر أحدًا من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه ، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من المعتضد . وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن [2].

في هذا الخبر موقفان عاليان :

---

(١) الجوالق كيس كبير من الصوف .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٩٥ – ٩٧ .

أولهما : موقف ذلك الخياط الصالح الذي أبى عليه إيمانه القوي وشهامته العالية أن يترك أخته في الإسلام فريسة لذلك الوحش الغادر ، فأنكر عليه اعتداءه عليها وتلقى منه الإهانة والضرب بالحديد ، ولما لم يستطع ردع ذلك الظالم بمفرده استعان عليه بمن ناصره من جماعة المسجد ، فلما لم يستطع لامتناع ذلك الظالم بغلمانه لم ييأس من إنقاذ تلك المرأة المظلومة ولم تهدأ نفسه ولم يغمض له جفن حتى ابتكر تلك الحيلة الناجحة ، فأذن في جوف الليل ليوهم ذلك الظالم بأن الفجر قد طلع .

وهكذا يصل المتقون السابقون بالخيرات إلى تعريض أنفسهم للأذى والهلاك في سبيل إنقاذ إخوانهم المسلمين من الظلم والعار .

إنهم ينظرون إلى كل أخت مسلمة على أنها بمنـزلة أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ، فيحبُّون لإخوانهم وأخواتهم مايحبون لأنفسهم ، ويكرهون لهم مايكرهون لها .

والموقف الثاني : موقف ذلك الحاكم العادل الحازم أمير المؤمنين المعتضد بالله ، الذي تنبَّه لذلك الأذان الذي انطلق في جوف الليل ،

مما يدل على يقظته واهتمامه بأمور رعيته ، ثم اهتمامهُ بالقضاء على ذلك المنكر بصرامة وشدة ، ليكون في ذلك ردع للظالمين المتجبرين .

من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب رحمه الله

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد قال: ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي في بغداد ، وكان عفيفا شديد الحرمة نَزِها ، جاءه يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه ، فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة ، فزبره القاضي وقال: ائتوني بدلاَّل النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة ، وجاء حاجب القاضي فأخذ بيده وأجلسه مع خصمه ، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه فقال له: مالك ؟ فأخبره بالخبر وما أراد القاضي من بيعه ، فقال : والله لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدا ، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع ، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان[1] .

فهذا مثل من عدل القضاة في الإسلام وعدم محاباتهم أصحاب

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١١٩ .

الجاه والمنـزلة ، ولقد كان هذا القاضي العادل يوسف بن يعقوب شديدًا على ذلك الخادم الذي أراد أن يهين الدين بعدم استسلامه للقاضي ، وترفعه عن مساواة خصمه،ولقد أثر فيه هذا الموقف القوي حتى أبكاه أمام الخليفة ، ولكنه كان أمام خليفة عادل ،حيث وبخه على ماكان منه من الترفع والإدلال بصلته به، وهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين المعتضد مع مواقفه السابقة في العدل وتعظيم حرمات الدين.

موقف للأمير أبي النجم بدر بن حسنويه الكردي رحمه الله

قال عنه الحافظ ابن كثير : كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان : وله سياسة وصدقة كثيرة ، كنّاه القادر بأبي النجم ، ولقَّبه ناصر الدولة ، وعقد له لواء وأنفذه إليه ، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة ، بحيث إذا أعيى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية فيرد عليه ولو بعد حين لاينقص منه شيء ، ولما عاثت امراؤه في الأرض فسادًا عمل لهم ضيافة حسنة ، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز ، فجلسوا ينتظرون الخبز ، فلما استبطؤوه سألوا عنه فقال لهم : إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع ، فمن أين تؤتون بخبز ؟ ثم قال لهم: لا أسمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم إلا أرقت دمه .

واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له : مالك تبكي؟ فقال : إني كان معي رغيفان أريد أن أتقوتهما فأخذهما مني بعض الجند ، فقال: أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ

رغيفيه ، قال : هذا هو، فأمر به أن ينـزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة ، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه ، حتى تأدب به الجيش كلهم [1] .

فهذا مثل جليل في العدل ، ولمسة حانية وعطف رحيم من هذا الأمير لذلك العامل البسيط.

إن منظر المظلومين الضعفاء وهم يبكون يثير شهامة الكرماء ، ويبعث أصحاب النفوس السوية على الرحمة بهم والعطف عليهم وبذل الجهد في إنصافهم .

ومن هذا المنطلق كان هذا الموقف الكريم من هذا الأمير الذي سلك سلوكا عاليا أنصف به المظلوم وردع به الظالم ، وبهذا الحكم العادل تستقيم أمور الأمة ويصلح المجتمع .

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٧ – ٣٧٨ .

من مواقف الأمير هشام بن عبد الرحمن الأموي

هو أحد أمراء الأندلس ومن أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ماذكره ابن عذاري في ترجمته قال : وكان هشام يبعث إلى الكُوَر [1] قومًا عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم ، فيقع نظره بهدم ماتكشفه المحنة له منهم ، واعترض له يوما متظلمٌ من أحد عماله، فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخَّاه شفقة منه على العامل ، فبعث إلى الشاكي وقال له: احلف على كل ماظلمك فيه ، فإن كان ضربك ، فاضربه ، أو هتك لك سترًا ، فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً ، فخذ من ماله مثله ، إلا أن يكون أصاب منك حدًّا من حدود الله ، فجعل الرجل لايحلف على شيء إلا أُقيد منه ، فكان زجره هكذا لعماله أبلغَ فيهم من النكال والأدب، وكان كريما عادلاً فاضلاً متواضعًا عاقلاً ، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته ، ولازلةٌ في أيام صباه . ومن كرمه أنه كان يَصُرُّ أموالاً في صُرر ، ويخرج

---

(١) يعني الأقاليم .

بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد، فإذا وجد واحدًا يصلي في مسجد أو لايصلي وضع بين يديه صرةً ، حتى كثرت عمارة المساجد .

وكان – رحمه الله – قد نظر في بنيان قنطرة قُرْطُبة ، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة . وتولى بناءها بنفسه ، وتُعطى الأجرة بين يديه . قال ابن وضاح : لما بنى هشام القنطرة ، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا : إنما بناها لتصيُّده ونُزهته ! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة .

قال القاضي أبو معاوية : أدركتُ صدرًا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدَّعة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثلٌ . وكان يحضر الجنائز ، ويزاحم فيها ، كأنه أحدٌ من الناس تواضعًا .

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب ابن عمران ، فسجل عليه القاضي فيها وأخرجه منها ، فنهض الرجل إلى هشام ، وقال له : إن القاضي سجَّل عليَّ في داري التي كنت أسكنها ، وأخرجني عنها ! فقال له هشام : وماذا تُريد مني ؟ والله لو

سجَّل عليَّ القاضي في مقعدي هذا ، لخرجت عنه ! انقيادًا منه للحق ، رحمة الله عليه ! [1] .

فهذه أمثلة من اهتمام الأمير هشام بن عبد الرحمن بالدعوة والإصلاح والعدل ، وإذا اقترنت هذه الاهتمامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها .

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٦٦ .

من مواقف الأمير الحَكَم بن هشام الأموي والقاضي محمد بن بشير

الحَكَمُ بن هشام هو أحد أمراء الأندلس ومن أخبار اهتمامه بالعدل ماذكره ابن عذاري في ترجمته قال : كان الحكم – رحمه الله – شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تُتَّقَى . وكان حسن التدبير في سلطانه ، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته ، وكان مبسوط اليد ، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده ، فمرض مرضا شديدًا ، فاغتم الحَكَم لمرضه ، فذكر بعضُ خاصته أنه أرق ليلةً أرقًا شديدًا ، وجعل يتململ على فراشه ، فقيل له : أصلح الله الأمير ! ما الذي عرض ؟ فقال : ويْحَكُم ! إني سمعت في هذه الليلة نادبةً ، وقاضينا مريضٌ ، وما أُراه إلا وقد قضى نحبه . فأين لي بمثله ، ومن يقوم بالرعية مقامه ؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المُصعب بن عمران قاضي أبيه . فولَّى بعده محمد بن بشير .

فكان أقصد الناس إلى حق ، وأبعدهم من جور ، وأنفذهم بحكم . ورَفع إليه رجل من أهل كورة «جيان» أنَّ عاملا للحَكَم اغتصبه جاريةً ، وصيرها إلى الحَكَم ، فوقعت في قلب الحكم كل

موقع ، فأثبت الرجل أمره عند القاضي ، وأتاه ببينه تشهد على معرفة ماتظلَّم منه وبمُلكه للجارية وبمعرفتهم بها ، فأوجبت السُّنَّةُ أن تحضر الجارية ، فاستأذن القاضي على الحَكَم ، فأذن له ، فلما دخل عليه ، قال له : أيها الأمير ! إنه لايتم عدلٌ في العامة دون إقامته في الخاصة ! وحكى له أمرَ الجارية ، وخيَّره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله ، فقال له الحكم : أوَلا أدعوك إلى خير من ذلك ! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ مايطلب فيها . فقال القاضي : إنَّ الشهود قد شهدوا من كورة جيان ، وأتى الرجل يطلب الحق في مظانِّه ، فلما صار ببابك ، تصرفُه دون إنفاذ الحق له ، ولعل قائلاً يقول : باع مالا يملك بيع مقهور ، فلما رأى عزمه على ذلك ، أمر بإخراج الجارية من قصره، فشهد الشهودُ عنده على عينها ، وقضى بها لصاحبها .

قال : وكان هذا القاضي محمدُ بن بشير ، إذا خرج للمسجد ، وجلس للأحكام ، جلس في رداءٍ معُصْفَر ، وشعر مفرَّق ، فإذا طُلب ماعنده وُجِد أفضلَ الناس وأورعهم .

وكان الحكم يقول : ماتحلَّى الخلفاءُ بمثل العدل ! [1] .

وهكذا يضرب الحَكَم بن هشام مثالا من أروع الأمثلة على الاهتمام بتعيين القضاة الأكفاء ويخضع لتطبيق الحق حينما يتوجه عليه، ويشيد بالخلفاء الذين يتحلون بالعدل ، وهذه أفعال وأقوال حميدة ، وخاصة حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسؤولية في بلادهم ، وهي إلى جانب كونها من المُثل العالية التي تربَّى عليها هؤلاء الأمراء في ظل تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب .

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محمد بن بشير حيث أصر على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم ، وهو موقف يضاف إلى مواقف القضاة العالية التي أقروا فيها العدالة وحفظوا للأمة الإسلامية أمنها وقوتها .

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٨ – ٧٩ .

من مواقف الأمير المنصور محمد بن أبي عامر

هو أحد أمراء الأندلس وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك : بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم . ابتدأ المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار ، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدرًا في مناقبه الجليلة . وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها ، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم ، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لايريد إلا إنصافه فيها . فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه : أن لاتخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبًا، كانت عنده أقصى الأمنية ، وشرطها صحاحًا . فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته ، وأنف في غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحًا كما قال . فقبض الشيخ مائة دينار ذهبًا ،

فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً في شكر المنصور ، وصارت قصته خبرًا سائرًا.

ومن ذلك أيضًا : بنيان قنطرة على نهر إستجة ، وهو نهر شنيل ، فتجشم لها أعظم مؤنة. وسهَّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة [1] .

فهذان مثلان من الإصلاحات العامة التي قام بها ، ومما يلفت النظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غبنه ، فهو لم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كما فعل أصحابه ، بل أعطاه حقه وأضعاف ذلك ، فهذا يدل على تنـزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه.

قال : ومن ذلك أنه خط بيده مصحفًا كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ .

منـزل من منازله ، حتى اجتمع له منه صُرةٌ ضخمة عَهد بتصييره في حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيث ماسار مع أكفانه ، توقعًا لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك [1] .

وهذان الخبران يدلان على قوة دينه وعمق استحضاره للحياة الآخرة وتعظيمه كتاب الله تعالى والجهاد في سبيله .

قال : وكان عدل المنصور في الخاصة والعامة .واطِّراحُه المهاودة، وبسطُه الحقَّ على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمرًا مضروبًا به المثل .

ومن عدله أنه وقف عليه رجلٌ من العامة يومًا بمجلسه فناداه : ياناصر الحق إن لي مظلمةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسك ! وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة . وكان له فضلُ محلٍّ عند ابن أبي

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ .

عامر ، ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم ، فلم يأت ! فقال المنصور : أَوَعبد الرحمن بن فطيس بهذه المنـزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك ياهذا ! فذكر الرجل معاملةً كانت جارية بينهما قطعها من غير نَصَف ، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصّقْلَبيّ ، وهو قد ذهل عقله ، فقال : ادفع الدرقة إلى فلان ،وانزل صاغرًا، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحقُّ أو يضعك ! ففعل ، ومثُل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خُذ بيد هذا الظالم الفاسق ، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ مايوجبه الحق من سجن أو غيره ! ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرًا ، فقال له المنصور : قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ،وبقى انتصافي أنا ممن تهاون بمنـزلتي. فتناول الصقلبيَّ بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك ، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقيِّ مع التاجر المغربي،فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور،وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، وإليه أمر داره وحرمه، فدافع

الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم، فأنصفه منه،وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك ، قصة محمد ، فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يومًا إلى الفصد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوسًا في سجن القاضي محمد ابن زرب ، لِحَيْف ظهر منه على امرأته ، قَدَّر أن سبيله من الخدمه يحميه من العقوبة. فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله ، ثم يعيده إلى محبسه ، ففعل ذلك على مارسمه ، وذهب الفاصد إلى شكوى مانالاه ، فقطع عليه المنصور ، وقال له : يامحمد ، إنه القاضي وهو في عدله، ولو أخذني الحقُّ ما أطقتُ الامتناع منه ! عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق هو الذي يطلقك . فانكسر الحاجم ، وزال عنه ريحُ العناية. وبلغت قصته للقاضي ، فصالحه مع زوجه ، وزاد القاضي

شدةً في أحكامه [1] .

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالميهم وإن كانوا من المقربين إليه، وفي الخبر الأول نراه يُنحِي باللائمة على ذلك القاضي الذي عجز عن استقدام المدَّعَى عليه لكونه من المقربين للمنصور ، فهو يرى بذلك أن القاضي يجب عليه أن يكون قويا وأن لاتأخذه في الحق لومة لائم وأن لايفرق في الخصومة بين كبير أو صغير ، ثم إنه بعد أن أخذ المظلومُ حقَّه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خاصة لكونه استغل قربه منه فامتنع من الحضور إلى مجلس القضاء.

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ – ٢٩٠ .

موقف للسلطان العزيز عثمان الأيوبي

ذكر المؤرخ الحافظ الذهبي أن عبد الكريم ابن البيساني أخا القاضي الفاضل كان يتولى البحيرة في مصر مدة ، وأنه حصَّل مالا كثيرا ، ووقع بينه وبين أخيه شيء فعُزل ، وكان مزوَّجا ببنت ابن ميسَّر فأساء عشرتها لسوء خلقه ، فتوجه أبوها وأثبت عند قاضي الإسكندرية ضررها وأنه قد حصرها في بيت ، فمضى القاضي بنفسه ورام أن يفتح عنها فلم يقدر ، فأحضر نقابا فنقب البيت وأخرجها ثم سد النقب ، فهاج عبد الكريم وقصد الأمير جهاركس بمصر وقال: هذه خمسة آلاف دينار لك وأربعون ألف دينار للسلطان وأُوَلَّى قضاء الإسكندرية ، فأتى هذا الأمير السلطان العزيز ليلا وأحضر الذهب ، فسكت ثم قال : ردَّ عليه ماله وقل له : إياك أن تعود إلى مثلها فما كل ملك يكون عادلا ، أنا ما أبيع أهل الإسكندرية بهذا المال [1] .

فهذا الخبر يشتمل على موقفين كريمين في العدل :

---

(١) سيرة أعلام النبلاء ٢١/ ٢٩٤ .

أولهما : موقف قاضي الإسكندرية آنذاك ، حيث حكم ضد رجل قد تولى قبل ذلك على قطاع كبير في مصر وصارت له شهرة ، وذهب بنفسه وأنقذ تلك المرأة من ظلم ذلك الرجل بطريقة قوية قد تعرضه لمشكلات مع ذلك الرجل ومن يناصره .

والموقف الثاني موقف السلطان العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وذلك حينما عرض عليه الأمير جهاركس تلك الرشوة الكبيرة ليولي عبد الكريم البيساني قضاء الإسكندرية ، فرفض السلطان العزيز ذلك العرض بشدة ، وهو في ذلك قد وازن بين مصلحة فَرْدٍ ومصلحة أهل الإسكندرية بأجمعهم ففضل رعاية مصلحة أهل الإسكندرية، وهو يعلم أن ذلك الرجل استعدَّ بدفع تلك الرشوة الكبيرة ليصل إلى منصب القضاء وهو لايصلح لذلك لأنه جبار ظالم ، وإذا كان قد ظلم زوجته التي هي من أقرب الناس إليه فكيف به في معاملة الناس ؟! وخاصة من كان بينه وبينهم خلاف ونزاع ، فمن أجل حماية أهل ذلك البلد من الظلم رفض هذا السلطان تعيين ذلك الجبار قاضيا .

وهكذا يضرب السلطان العزيز مثلا عاليا في العدل والرحمة ، ويحول دون وصول المفسدين في الأرض إلى مقام الولاية على المسلمين .

من مواقف الأمير قسيم الدولة رحمه الله [1]

قال ابن الأثير : وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظا لهم ، وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهم قَفَلٌ أو أحدٌ من الناس غرم أهلها جميع مايؤخذ من الأموال من قليل وكثير ،فكانت السيارة [2] إذا بلغتْ قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته [3] .

فهذه سياسة حكيمة من هذا الأمير العادل الحازم تدل على رغبة صادقة في العدل وإقرار الأمن، فهو بهذه الخطة قد حول جميع أهل القرى في إمارته إلى جنود يحرسون المسافرين ويقرون الأمن فأصبح الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم وينامون وهم مطمئنون .

---

(١) هو الأمير قسيم الدولة آق سنقر أمير مدينة حلب ، وهو والد السلطان عماد الدين زنكي وجَدُّ السلطان العادل نور الدين زنكي ، توفي سنة (٤٨٧هـ) .

(٢) أي المسافرون .

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمؤرخ أبي شامة المقدسي ١/ ١٠٢ .

من مواقف السلطان عماد الدين زنكي رحمه الله [1]

قال ابن الأثير : حدثني والدي قال : قدم الشهيد أتابك زنكي[2] إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين ، وكان زمن الشتاء ، فنـزل بالقلعة ، ونزل العسكر في الخيام . وكان في جُمْلة أمرائه الأمير عزّ الدين أبو بكر الدُّبيسي – وهو من أكابر أمرائه – ومن ذوي الرأي عنده – فدخل الدُّبيسي البلدَ ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها ، فاستغاث اليهودي إلى الشَّهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأُخبر به ، وكان الشهيد واقفًا والدُّبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدُّبيسي نظر مُغْضَب ولم يكلِّمْه كلمة واحدة ، فتأخَّر القهقرى، ودخل البلد ، فأخرج خيامه وأمر بنصبها ، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطِّين. قال : فلقد رأيتُ الفَرَّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرته

---

(١) هو السلطان عماد الدين بن قسيم الدولة زنكي توفي سنة (٥٤٠هـ) .

(٢) هو عماد الدين زنكي وقد كان قتل شهيدًا فلذلك يطلق عليه الشهيد .

جعلوا على الأرض تبنًا ليقيموها ، ونصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته .

قال : وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول : مهما كانت البلاد لنا فأيّ حاجة لكم إلى الأملاك ، فإن الإقطاعات تُغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرَّعية وتعدُّوا عليهم وغصَبوهم أملاكهم[1] .

فهذا من أمثلة اتصاف الشهيد عماد الدين زنكي بالعدل في أبلغ صوره ، حيث إن المدعَى عليه في هذه القضية هو أحد أكابر أمرائه والمدعي من اليهود أهل الذمة ، فمع الفارق الكبير بينهما غضب عماد الدين على ذلك الأمير حينما وقع في ظلم ذلك اليهودي ، وكان ذلك الغضب كافيا لردع ذلك الأمير ، مما يدل على ما كان يتصف به عماد الدين من الحزم والقوة ، وإذا كان هذا موقفه في إنصاف رجل من

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي ١/ ١٥٧ .

أهل الذمة فكيف الحال فيما لو كان من المسلمين !!

وهذا الاهتمام بالعدل ومحاربة الظلم كان من أهم أسباب تمكين عماد الدين زنكي في الأرض وانتصاراته العجيبة على محاربيه .

من مواقف السلطان محمد بن ملكشاه رحمه الله [1]

قال المؤرخ أبو شامة المقدسي :

كان عادلا حسن السيرة شجاعًا ، وأطلق المكوس والضَّرائب في جميع البلاد . ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من بعض التجار ، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزستان، فأوصل إليه البعض ومطل الباقي ، فحضر التاجر مجلس الحكم ، وأخذ غلام الحاكم ، ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه ، فأمر من يستعلم حاله ، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله ، فعظم عليه ، وضاق صدره ،وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر . ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم ، وكان يقول كثيرًا : لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ، ولم يمتنع أحدٌ عن أداء الحق .

قال ابن الأثير : وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت

---

(١) هو السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي توفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

الأتابكي ، فإن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ماندم السلطان محمد على تركه ، ولماعلم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به فأمن الناس وظهر العدل [1] .

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/ ١٠٧ – ١٠٨ .

من مواقف السلطان نور الدين محمود

ذكر المؤرخ أبو شامة عن مقلَّد الدولعي أنه قال : وحدثنا الشيخ داود المقدسي ، خادم قبر شُعيب ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، قال : حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ، فقام رجلٌ وادَّعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئًا بغير حق ، قال : وأنا مطالبٌ لك بذلك . فقال نور الدين : أنا ما أعلم ذلك ، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها ، وأنا أردُّ إليك ما يخصني،فإني ماورثت جميع ماله،كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليُحْضِر البيِّنَةَ ،فقلت في نفسي :هذا هو العدل [1] .

ثم قال أبو شامة : أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل ابن عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكَرْدَري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويدًا يُحْضِر الخصوم إلى مجلس الحكم . فحضر بعضُ التجار ،

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٣ .

وادَّعى أن له على نور الدين دعوى . فقال الكردري لسويد المذكور : امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرِّفْه أنه حضر شخصٌ يطلب حضوره . وكان نور الدين في الميدان ، فجاء سويد إلى باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخِزَندار فوجده ، فتقدَّم سويد إليه وقال : قد سيرني تاج الدين القاضي – وذكر أنه حضر تاجر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين – وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا . فضحك إسماعيل الخزندار ، ودخل على نور الدين ضاحكًا وقال له مستهزئًا: يقوم المولى فقال : إلى أين ؟ فقال : قد حضر سويد غلام تاج الدين الكردري وقال: إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم ! فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ! وقال نور الدين : يُحضر فرسي حتى نركب إليه ، السمع والطاعة . قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] . ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة ، فاستدعى سويدًا وقال له : امض إلى القاضي تاج الدين،

وسلِّم عليه وقل له : إني جئتُ إلى هاهنا امتثالا لأمر الشَّرْع ، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقَّة وفيها الأطيان ؛ وهذا وكيلي يسمع الدعوى ، وإن توجهتْ علي يمين أحضر إن شاء الله ، قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى وتوجهت اليمين ، فقال الكردري : قد توجهت اليمين فليحضر . فلما بلغ نور الدين ذلك ، وعلم أنه لامندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر ، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه [1] .

فهذان الخبران يدلان على اهتمام السلطان نور الدين بالعدل وتجرده من حظ النفس وعدم اعتزازه بأبهة السلطان ، فهو لم يغضب على الخصوم حينما ادعوا عليه ، ولم يستنكف عن الحضور بين يدي القاضي حينما قامت عليه الدعوى بل استسلم لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ، ولقد أعاد بذلك سيرة الصحابة رضي الله عنهم ، حيث كان أمراؤهم يحضرون مع خصومهم عند القضاة ، ويقبلون بحكم

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٥ – ٦٦ .

القضاة عليهم .

وذكر المؤرخ أبو شامة أيضًا من خبر مقلَّد الدولعي قال : وحضر جماعة من التجار، وشكوا أن القراطيس [1] كان ستون منها بدينار ، فصار سبعةٌ وستون بدينار ، وتزيد وتنقص ، فيخسرون . فسأل الملكُ العادل عن كيفية الحال ، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار ، ولايرى الدينار في الوسط ، وإنما يعدُّون القراطيس بالسعر ، تارةً ستين بدينار ، وتارةً سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدَّنانير الملكية ، وتبطل القراطيس بالكليَّة . فسكت ساعة وقال : إذا ضربتُ الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنّي خربت بيوت الرعية ، فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، أيش يعمل به ، فيكون سببًا لخراب بيته . قال : فأي شفقة

(١) يعني العملة الورقية .

تكون أعظم من هذا على الرعية ! [1] .

وهذا عدل من السلطان نور الدين ورحمة بالرعية ، حيث إن الناس سيخسرون ويتضررون من تغيير العملة ،فرأى ارتكاب أخف الضررين بإبقاء العملة السابقة مع مافيها من اختلاف يسير.

ومن أخبار السلطان نور الدين أنه كان في يوم من الأيام يلعب بالكرة في دمشق فرأى رجلا من أتباعه يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومةً حول بعض الأملاك ، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة ، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين ولكن هذا ألح عليه ، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له : إنني قد جئت محاكما فاسلك معي ماتسلكه مع غيري ، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه ، وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور:

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٥ .

هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا ، قال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحقَّ له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه .

قال ابن الأثير:تلك هي غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل[1] .

وهكذا رأينا السلطان نور الدين يضرب مثلا عاليا في الخضوع لشريعة الله تعالى ، وذلك بسرعة الحضور عند القاضي حينما دعاه ، وقد توَّج هذه المأثرة العالية في العدل بمأثرة أخرى في الإحسان حينما تنازل عن الحق الذي خوصم فيه لمخاصمه مع ثبوت حقه فيه ، وهذا مثل جيد في النـزاهة والعفة .

ومن روائع السلطان نور الدين في القضاء وإجراء العدالة والإنصاف من الأمراء والقادة إنشاء «دار العدل » في دمشق ، وكان

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ ، كتاب الروضتين ١/ ٣٨ – ٣٩ .

سببَ إنشائها تزايدُ سلطان عدد من كبار الأمراء وتجاوزُ بعضهم في ظلم الناس وعدمُ خضوع بعضهم لسلطة الحاكم الشرعي ، فلما علم بذلك نور الدين أمر ببناء دار العدل .

وفي ذلك يقول المؤرخ أبو شامة : ومن عدله أن بنى دار العَدْل . قال ابنُ الأثير : كان نور الدين رحمه الله أول من بنى دارًا للكشف ، وسمَّاها دار العدل . وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، وأقام بها أمراؤه – وفيهم أسد الدين شِيركُوه ، وهو أكبر أميرٍ معه ، وقد عَظُمَ شأنه وعلا مكانه ، حتى صار كأنه شريك في الملك – واقتنوا الأملاك وأكثروا ، وتعدَّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شِيركُوه ، فأنهى الحالَ إلى نور الدين ، فأمر حينئذٍ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسدُ الدين بذلك أحضَرَ نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنعُ على كمال الدين؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم

لأصلبنَّه ، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في مِلك ، فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأي طريق أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي.فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطُّوا في الطلب . فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم ، أو يُساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة . فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم . فلما فرغت دارُ العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضُر عنده أحد يشكو من أسد الدين . فقال نور الدين لكمال الدين : ما أرى أحدًا يشكو من شِيركُوه . فعرَّفه الحال ، فسجَدَ شكرًا لله تعالى ،وقال: الحمد لله الذي أصحابُنا ينصفونَ من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

قال ابن الأثير : فانظر إلى هذه المَعْدِلَة ما أحسنَها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها ، وإلى هذه السياسة ما أسَدَّها ، هذا مع أنه كان لايريق دمًا ، ولايُبالغ في عقوبة ، وإنما كان يفعل هذا صدقُه في عدله

وحسنُ نيته [1] .

وهكذا كان نور الدين موفقا في إنشاء محكمة عليا يتولى هو بنفسه فيها الحكم على أمرائه الذين قد لايتمكن الحاكم الشرعي من السير في إجراءات الحكم عليهم .

لقد كان التفكير في إنشاء دار العدل في غاية الروعة والسمو ، حيث أصبح بإمكان نور الدين أن ينصف جميع المظلومين من ظالميهم وإن كانوا من أصحاب المناصب الكبيرة ، وكان مجرد إنشاء هذه الدار كافيا لردع الظالمين من الولاة عن الظلم خشية أن يُستدعوا إلى تلك الدار فيوقفوا مع أصحاب الحقوق أمام السلطان نور الدين .

وهكذا يكون العدل الكامل ، إن كمال العدل لايكون بإنصاف المظلومين من الظالمين الضعفاء أو المتوسطين فقط ، وإنما يكون بشمول العدالة والإنصاف من جميع الناس وإن كانوا من الكبراء المتجبرين .

---

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٤١ – ٤٢ .

وفي بيان عدل نور الدين ورفقه بالناس وتواضعه يقول أبو الفتح بَنْجير بن أبي الحسن بن بَنْجير الأَشْتَري – وكان ورَدَ دمشق ، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة – قال : كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرَّعية وكشف الظُّلامة ، لايطلب بذلك درهمًا ولادينارًا ولا زيادة ترجعُ إلى خزانته ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وطلبًا للثواب والزُّلْفَى في الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبَوَّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير ، والقوي والغني ، ويكلِّمهم بأحسن الكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه ، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعًا في عدله ، ويَعْجُز الخصم عن دفعها خوفًا من عدله ، فيظهر الحقُّ عنده فَيُجْري الله على لسانه ماهو موافقٌ للشَّريعة ، ويسأل العلماءَ والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في

مجلسه إلا محضُ الشَّريعة [1].

وهذا كلام بليغ في وصف عدل نور الدين وتواضعه ، وقد أبان فيه أن الناس أصبحوا في ظلال عدله متساوين في المقدرة على الوصول إلى السلطان وأخذ حقوقهم إذا ثبتت لهم بيسر وسهولة ، وأنه لم يعد هناك أقوياء وذوو جاه يستطيعون الوصول ، وضعفاء مغمورون لايستطيعون ذلك ، وأن نور الدين لكمال عدله وورعه يُحضر العلماء معه في مجالس الحكم فيستفتيهم ويصححون له إذا أخطأ في حكم،وهذا نموذج رفيع في تطبيق الشريعة والحكم بها بين الناس .

ومن ذلك ماذكره المؤرخ ابن الأثير عن رضيع الخاتون زوجة نور الدين قال: إنها قلَّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرَّره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها [أي مخصصاتها المالية] ، فلما قلت له ذلك تنكَّر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها أما يكفيها مالُها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٦٢ .

الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! إنما هي أموال المسلمين ومُرصدةٌ لمصالحهم ومعدَّة لفتْق – إن كان – من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين مُلكًا قد وهبتها إياها فلتأخذها.

قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين دينار[1] .

فهذا مثل من ورع السلطان نور الدين وعدله ، فهو يُشَبَّه بعدله وورعه وزهده بأمير المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله تعالى ، فقد غضب نور الدين لما سألته زوجته زيادةً في مخصصاتها المالية ، وتذكَّر حالاً نار جهنم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وعظمة خشيته من الله جل وعلا .

ولقد كان عظيم الاهتمام بالعدل وتمكين المظلومين من إنهاء قضاياهم إليه ، ذكر ابن قاضي شهبة أنه كان يقول : حرام على كل من صحبني ولايرفع إليَّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ، ويقول

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ ، كتاب الروضتين ١/ ٣٤ – ٣٥ .

خادمه شاذ بخت الطواشي الذي كان أحدَ نوابه في حلب: كنت يوما أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما ، وجعل ينكش بإصبعه الأرض ، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه ؟ ! وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد ، فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وإخواني ، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله ، فبالله عليكم – وإلا فخُبْزِي عليكم حرام – لاتريان قصة مظلوم لاترفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلِماني بها وارفعاها إلي [1] .

ففي هذا الخبر نجد نور الدين يستغرق طويلا في التفكير في أمور رعيته ، ويخشى من الله جل وعلا أن يحاسبه على الظلم الذي يقع على أفراد رعيته من ولاته ، وهذا يعني أنه قد تحرى العدل في حكمه المباشر ، ولكنه يخشى أن لايستقيم على ذلك ولاته ، فيكون مشاركا

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٥٩ .

لهم فيما يقع منهم من ظلم ، فكان لذلك همُّه الكبير واستغراقه في التفكير ، وهذا يجعله يسلك في الطريق المستقيم نحو النجاة من عذاب الله تعالى والظفر بنعيمه .

وفي بيان أثر نور الدين في إقرار العدل يذكر المؤرخ ابن شامة نقلاً عن المؤرخ ابن الأثير أنه قال: ومن عدله أيضًا بعد موته – وهو من أعجب ما يُحكى – أن إنسانًا كان بدمشق غريبًا ، استوطنها وأقام بها لِما رأى من عدل نور الدين رحمه الله . فلما توفي تعدَّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل ، فشكاه ، فلم يُنصَف . فنـزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يانور الدين ، لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك ! وقصد تربة نور الدين ، ومعه من الخَلق مالا يُحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعيَّة وإلاّ خرج عن يدك . فأرسل إلى ذلك الرجل – وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه – فطيَّب قلبه ووهَبه شيئًا وأنصَفَه ، فبكى أشدَّ من الأول . فقال له صلاح الدين : لِمَ تبكي ؟ قال : أبكي على سلطانٍ عَدَل فينا بعد موته . فقال

صلاح الدين:هذا هو الحق،وكل ماترى فينا من عدل فمنه تعلَّمناه[1].

وهذا موقف مؤثر في بيان حب الناس لنور الدين وتعلقهم به وتذكُّرهم لعدله وسياسته الرحيمة ، فرحمه الله ما أعلى ذكره حيا وما أبلغ أثره ميتا !

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤١ .

من موقف السلطان عبد العزيز الحفصي رحمه الله تعالى

قال عنه الإمام شمس الدين السخاوي رحمه الله تعالى : عبد العزيز بن أحمد بن محمد أبو فارس الهنتاتي الحفصي ملك المغرب وصاحب تونس : قال شيخنا في «إنبائه» : قرأت بخط صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التونسيّ فيما كتب من سيرته أنه بلغه أنّه كان لاينام من الليل إلا قليلا بل حزر بقدر أربع ساعات لاتزيد قط وربما نقصت ، وأنه ليس له شغل سوى النظر في مصالح ملكه ، وأنه كان يؤذن بنفسه ويؤم بالناس في الجماعة ويكثر من الذكر ويقرب أهل الخير، وأنه أبطل كثيرًا من التركات والمفاسد بتونس كالعيالة وهو مكان يباع فيه الخمر للفِرنج يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه ، وكذا المُكوس [1] بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها .

شُكِيَ إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليهم قمحًا

---

(١) أي : الضرائب .

من عنده وقال أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لا يُشترى من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ماعندهم كذلك فترك هو حينئذ البيع فبلغه أنهم زادوا قليلا فأمر ببيع ماعنده بدينار فقط وتقدم إلى خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لايبيع شيئًا وإلا باع بدينار فاضطربوا إلى أن مشى الحال فكانت من أحسن الحِيَل في تمشية حال الناس .

إلى أن قال : حضر محاكمة مع منازع له في بستان إلى القاضي فحكم عليه فقبل الحكم وأنصف الغريم [1] .

فهذا موقف جيد من السلطان عبد العزيز الحفصي،وذلك في الشعور بمسؤوليته عن الأمة التي تولى أمرها ،فبعض التجار لايهمهم إلا مصالحهم الخاصة ولايبالون باحتكار الأطعمة الضرورية والزيادة في أثمانها ، ولايشعرون بمشاعر الفقراء الذين لايستطيعون دفع

---

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ٤٢٨ عن « الضوء اللامع » للسخاوي .

الأثمان الغالية ، فيكون ذلك سببا في حرمانهم من العيش الضروري أو تحملهم الديون بسبب ذلك .

فلما قام بعض التجار باحتجاز ماعندهم من القمح ليكون ذلك سببا في غلاء الأسعار قام ذلك السلطان بتصرف مضاد لهم ، حيث أمر عملاءه من التجار بالبيع بثمن منخفض ، فاضطروا إلى البيع بالثمن المعتاد ، فقضى بذلك على تلك الأزمة التي سيتضرر منها جميع الفقراء .

وأخيرًا موقف في التواضع والعدل من السلطان الحفصي ، حيث حضر إلى القاضي وجلس مع خصمه ، وأقر بالحق عند ثبوته عليه وهذا دليل على قوة إيمانه ورجاحة عقله.

فهرس المصادر والمراجع

- أُسد الغابة في معرفة الصحابة / لعز الدين علي بن محمد الشيباني «ابن الأثير» / الناشر: انتشارات إسماعليات في طهران.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب / لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري / الناشر : مصطفى محمد بمصر .
- الإصابة في تمييز الصحابة/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» / الناشر: مطبعة مصطفى محمد في مصر .
- البداية والنهاية/ للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت .
- البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى/ الناشر: دار الثقافة في بيروت .
- تاريخ الإسلام / للحافظ محمد بن أحمد الذهبي / الناشر : دار الكتاب العربي .
- تاريخ بغداد/ للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي / الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت .

- تاريخ دمشق/ للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله «ابن عساكر»/ الناشر: دار الفكر .
- تاريخ الطبري/ للمؤرخ محمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تاريخ المدينة المنورة / لأبي زيد عمر بن شبة النميري/ تحقيق : فهيم محمد شلتوت .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / للحافظ محمد المباركفوري / الناشر : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
- جامع العلوم والحكم / للحافظ عبد الرحمن «ابن رجب» الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت .
- جمع الفوائد / لمحمد بن محمد بن سليمان / الناشر : عبد الله بن هاشم اليماني – المدينة المنورة .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ للحافظ أبي نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني/ الناشر:مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة في مصر.
- الدرر الكامنة / للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر» /

الناشر: دار الجيل في بيروت .

- الدر المنثور / للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي/ الناشر: أمين دمج – بيروت .
- دلائل النبوة / للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني/ الناشر : عالم الكتب – بيروت .
- الذيل على طبقات الحنابلة/ للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد «ابن رجب » / الناشر : دار المعرفة في بيروت .
- الزهد / للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت .
- سنن الترمذي / للحافظ أبي عسى محمد بن عيسى الترمذي/ الناشر: المكتبة الإسلامية .
- سنن أبي داود/ للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي/ الناشر: محمد علي السيد – حمص .
- سنن الدارمي/ للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي/ الناشر: دار الريان في القاهرة، ودار الكتاب العربي في بيروت .

- سنن ابن ماجه/ للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»/ الناشر: دار إحياء الكتب العربية .
- سنن النسائي / للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي / الناشر : المكتبة التجارية الكبرى في مصر .
- سير أعلام النبلاء / للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: مؤسسة الرسالة في بيروت .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / لأبي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم/ الناشر: دار العلم للملايين .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ الناشر: دار الفكر .
- صحيح البخاري/ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في القاهرة .
- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيري/ الناشر: دار إحياء التراث العربي .
- صفة الصفوة / للحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي/

الناشر: دار المعرفة في بيروت .
- طبقات الحنابلة/ للقاضي محمد بن أبي يعلى / الناشر: دار المعرفة في بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى/ للحافظ عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي/ الناشر: دار المعرفة في بيروت .
- الطبقات الكبرى/ لمحمد بن سعد بن منيع/ الناشر: دار صادر في بيروت.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر ا لزرعي «ابن القيم» / الناشر : مكتبة النهضة الحديثة – بمكة المكرمة .
- عيون الأثر / للحافظ محمد ابن سيد الناس / الناشر : دار المعرفة – بيروت .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر العسقلاني» الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في مصر .

- الفتح الرباني / لأحمد بن عبد الرحمن البنا/ الناشر: دار الحديث في القاهرة .
- القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي / الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / لعلاء الدين على المتقى البرهان فوري / الناشر: دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد.
- لسان العرب/ لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور/ الناشر: دار صادر – بيروت .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / للحافظ على بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت .
- مجموع فتاوى ابن تيمية / جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم / مطابع الرياض .
- المختار المصون من أعلام القرون / للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / الناشر : دار الأندلس الخضراء – جدة .
- مدارج السالكين / للإمام محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية/

الناشر : مطبعة السنة المحمدية – القاهرة .
- المستدرك على الصحيحين / للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري / الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب .
- مسند أحمد / للإمام أحمد بن حنبل الشيباني / الناشر: المكتب الإسلامي ودار صادر – بيروت .
- مسند الطيالسي / للحافظ سليمان بن داود الجارود/ الناشر: الطبعة المنيرية بالأزهر .
- المسند / للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي/ الناشر: عالم الكتب – بيروت ، مكتبة المثنى – القاهرة .
- المصنف / للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ الناشر: المجلس العلمي في الهند .
- المعجم الأوسط / للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر : مكتبة المعارف – الرياض .
- معجم البلدان / لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي/ الناشر : دار صادر ودار بيروت – بيروت .

- المعجم الكبير / للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر : وزارة الأوقاف – العراق .
- المغازي / لمحمد بن عمر الواقدي / الناشر: عالم الكتب – بيروت .
- منتخب كنز العمال / للعلامة على المتقي الهندي/ الناشر: المكتب الإسلامي ، دار صادر – بيروت .
- موارد الظمآن / للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر : المطبعة السلفية ومكتبتها – القاهرة .
- الموطأ / للإمام مالك بن أنس/ الناشر:دار إحياء التراث العربي.
- النهاية في غريب الحديث والأثر / للحافظ أبي السعادات «ابن الأثير» / الناشر : دار إحياء الكتب العربية .
- الوافي بالوفيات / لصلاح الدين خليل الصفدي/ الناشر: فرانز شتايز بفيسادن .
- وفيات الأعيان / لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان / الناشر: دار صادر – بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
من توجيهات رسول الله ﷺ	٩
من مواقف أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه....	٢٠
من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.....	٢٤
من مواقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه	١٠١
من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه	١٠٦
من مواقف عمران بن حصين رضي الله عنه	١٢٢
من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه	١٢٤
من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز	١٢٥
من مواقف أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك	١٦٩
من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور	١٧١
من مواقف القاضي أبي يوسف	١٧٢
من مواقف القاضي حفص بن غياث	١٧٤
من مواقف أمير المؤمنين المأمون	١٨١

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد ١٨٢
من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب ١٩٦
من مواقف الأمير أبي النجم بدر بن حسنويه ١٩٨
من مواقف الأمير هشام بن عبد الرحمن الأموي ٢٠٠
من مواقف الأمير الحكم بن هشام الأموي ٢٠٣
من مواقف الأمير المنصور بن أبي عامر ٢٠٦
من مواقف السلطان عثمان الأيوبي ٢١٢
من مواقف الأمير قسيم الدولة ٢١٥
من مواقف السلطان عماد الدين زنكي ٢١٦
من مواقف السلطان محمد بن ملكشاه ٢١٩
من مواقف السلطان نور الدين محمود ٢٢١
من مواقف السلطان عبد العزيز الحفصي ٢٣٦
فهرس المصادر والمراجع ٢٣٩
فهرس الموضوعات ٢٤٧